اقرأ

محمد عبد الغني حسن

بطل السند

دار المعارف بمصر

محمد عبد الغني حسن

بطل السند

بيت الأبطال

ليس بطل هذه القصة التاريخية شخصاً من صنع الخيال ، أو صورة مما خلقه الوهم ، أو اسماً من الأسماء التى يلفقها صُناع المغامرات فى رداء براق يختلب الألباب ، ويشوق الأسماع .

إنه بطل بما تحمله لفظة البطولة من معان ؛ إنه رجل عاش فى عالم الواقع ، لا فى دنيا الخيال ، إنه فتى عربى الدماء ، مُضرى الآباء . ركب الله جسمه من اللحم والدم كما تتركب بقية الأجسام ، ولكن أودع بين جنبيه نفساً بعيدة المطامح نائية المطارح . حتى لتكاد الأرض على رحابها تضيق بآماله ، والدنيا على اتساع شعابها تصغر دون مآربه .

وما عجب أن يكون بطل هذه القصة قد قُدّ على هذا الطراز ، وفُصل على هذا القالب . بل قد يكون أعجب العجب لو أنه شذ عن هذا الطراز . فمن الظلم أن لا يشبه المرء آباءه . ومن يشابه أبهُ فما ظلم . . .

لقد أنجبت أسرة هذا الفتى الماجد الكريم للإسلام فتياناً

شُم الأنوف بيض الوجوه ، كرام الأحساب ، وكانوا سادة في الجاهلية حين كانت الأصنام تتخذ آلهة من دون الله . فلما جاء الإسلام توج السيادة فيهم ، وعقد الألوية لهم ، ونشر منهم طائفة في شعاب الأرض يفتحونها بلداً إثر بلد ، ويُسقطون معاقل الشرك فيها معقلا بعد معقل . ولا تزال الأرض البعيدة السحيقة ترمى بهم في أقطارها ، نشراً لكلمة الله ، وهم لا يشكون سيراً ، ولا يخافون بأساً ولا رَهقاً .

إنهم بَنو ثَقيف في الطائف . والطائفُ رَبضٌ من أرباض مكة ، نضر الله أرضها ، وأبردَ نسمات الهواء فيها ، وأخرج من رياضها نباتاً مختلفاً ألوانه ، وفاكهة تسقى بماءٍ واحد ، ويفضل الله بعضها على بعض في الأكل . . .

لقد اشتهرت الطائف فوق بساتينها ورياضها بدباغة الجلود والأُهب الطائفية المعروكة كما يذكر الهمداني — صاحب صفة جزيرة العرب — في وصفها وكأن أُهبَ شبابها وجلود أجسامهم المعروكة تُوائم الأُهب والأدُمَ التي يصنعونها . ففيهم من الجلد في المواقف ، والصبر على المكاره ، والثبات في المعارك ما يذكر دائماً بمتانة الأُهب التي تصنع بأيديهم ،

والتى حازت فى رحاب الجزيرة كلها شهرة عريضة ، كما حازت سيوف الهند شهرة فى القتال ، والرماحُ الخطِّية شهرة فى المصاولة والنزال .

كانت الطائف جلها أغلبَ مساكن بنى ثقيف ، ولهم فيها السيادة والجاه من قديم . وفى بعض رجالاتهم فى الجاهلية وجاهة فى النسب ، وعراقة فى الحسب ، وعظمة فى المنابت والأصول . أليس منهم عروة بن مسعود الثقفى الذى عادلت به قريش فى عنادها ولجاجها محمداً عليه السلام ، وتمنت لو نزل عليه القرآن واختصه الوحى ، فقالوا : (لولا نُزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) ؟

أليس منهم معتِّب بن مالك الثقفى الذى بعثه رسول الله إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام ، ويبشرهم بالدين الجديد الذى جاء يفرق بين الحق والباطل ، ويوضح المعالم بين الظلمات والنور ؟

أليس منهم غَيلان بن سلمة الذى كانت له فى قومه الرياسة وإليه مقالد الحكم ، ومفاتح الأمر والنهى ، فوفد على كسرى أيام كانت وفود العرب تَفدُ على دولة الأكاسرة

يفاخرون بآبائهم ، ويذكرون مآثرهم ، ولا يبالون ، وبين يدى كسرى الصولجان وعلى رأسه التاج ، أن يتنقصوا كل أمة غير العرب ، وكل لغة غير لغة العرب ، وكل مكرمة غير المكارم العربية ؟

أليس منهم القاسم بن محمد أبو بطلنا ، وهو الذى كان والياً على البصرة من قبَل الحجاج بن يوسف ، فأحسن الولاية ، وضبط الأمور ، وأجزأ فى المهم الذى انتدب له ؟

أليس منهم الحجاج بن يوسف الثقفى ، وأبوه ابن عم بطلنا ، وهو من هو فى التاريخ الإسلامى ، وفى توسيع رقعة المملكة الإسلامية ، وفى تشجيع الفتوح ، وفتح الثغور ، على الرغم مما عيب عليه من قسوة بالغة فى إراقة الدماء ، وفى الضرب على الأيدى ، وفى أخذ البرىء بالمسىء ، حتى سكنت له وللأمويين ثوائر الفتن ، وخمدت نار الخلاف ، وسكنت ريح الثورات التى كانت تهدد الدولة العربية القائمة بصدع كبير ، وأمر خطير ؟

فلم يكن بطلنا محمد بن القاسم إذن خارجاً على السنن الذى بناه آباؤه . إنه من قوم كانوا يرون الموت على الفراش

عاراً ، وكانوا يرون أن السيادة لا يمنع منها سنٌّ ، ولا يقيدها حساب بعمر . فقد يطول العمر ولا سيادة لصاحبه ، وقد تقصرُ مسافة الأعمار ، ولكنها تزدحم بالهمم الكبار التى لا منتهى لها .

ألم يَسد الحجاج نفسهُ وهو فويق الخامسة والعشرين ، ثم صارت إليه ولاية الحجاز وهو فى الثالثة والثلاثين ، ثم انتهت إليه ولاية العراق وهو حول الخامسة والثلاثين ؟ ولقد كان الحجاج يتعجل مراتب السيادة والرياسة كأنه معها على رهان . فهو فى أول أمره معلم صبيان بالطائف ، وفى الخطوة التالية نراه شرطيًّا فى شرطة عبد الملك بن مروان ، فتأتيه الرياسة نتيجة لموقف حازم منه على المتقاعدين عن القتال ، فإذا هو رئيس مقدم عند الخليفة الأموى الذى أعطى فراسة فى اختيار الرجال .

لا ! لقد فاق بطلنا محمد بن القاسم ابن عم أبيه الحجاجَ فى السؤدد على حداثة من السن ، بل فاق فتيان ثقيف جميعاً ، بل فاق آلافاً مؤلفة من رجال المسلمين وقوادهم ، بل فاق كثرة كاثرة ، وأمةً ساحقة من رجال العالم كله ، شرقيه وغربيه ،

قديمه وحديثه ، عُربه وعجمه ، حين فتح الله على يديه « السند » للمسلمين ،وسنه سبعة عشر عاماً، لا تزيد، بل قد تنقص ببضعة من الشهور . . .

لقد قالوا فى عقل الحجاج بن يوسف الثقفى إنه لا تدانيه عقول الرجال ، فهو راجح الميزان فى التفكير والتدبير إذا قورن بمن عداه من كبار العقول ، ولكن محمد بن القاسم — بطل الهند والسند — ولا يكاد القواد العالميون يبلغون مداه أو يلحقون غبار فرسه ، حين تنصب للرجال الموازين القسط ، فلا يتحيف عليها اعتبار لمذهب ، أو ميل مع تعصُّب .

واللهم احفظنا من التعصب ، وخاصة إذا جاء ممن يُرجى منهم الانتصاف ، ويؤمل فيهم العدل ، وتُنتظر منهم كلمة الصدق . ولقد كان أهل ابن القاسم وقومه وقبيله موضعاً للانتقاص من الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان . وهو انتقاص دفع إليه التجنى على الحق ، والإنكار للتاريخ ، والطمس لمعالم المتعالم المعروف ، والاستجابة لدواعى الغضب حين يميل بصاحبه إلى الهوى ، فيخرجه عن جادة الرأى الصحيح . . .

فقد ذكر التاريخ والمؤرخون أن عبد الملك بن مروان غضب على الحجاج بن يوسف يوماً لأنه أهان أنس بن مالك خادم رسول الله عليه السلام ، وقد امتد به الأجل حتى أدرك عصر عبد الملك ، فكتب إلى الحجاج كتاباً بالغ الشدة ، بادى التهديد ، واضح السخرية ، حين يقول فى بعض مقاطعه : (أنسيتَ مكاسب آبائك بالطائف ، وحفرهم الآبار ، ونقلهم الصخور على ظهورهم فى المناهل ؟) .

ولعل كلاماً لم يُخرجه الغضب والسخط عن طريق الصدق والحق مثل هذا الكلام . . . فإن آباء الحجاج وآباء بطلنا محمد بن القاسم هم كما ذكرنا من بنى ثقيف فى الذؤابة ، وإليهم انتهت الرياسة فى الطائف ، والوفادة على كسرى فى الجاهلية ، والدعوة إلى الإسلام فى بداية الدعوة ، حين شكا النبى عليه السلام إلى الله ضعفه وقلة حيلته . وحين أغرى سفهاء الطائف الصبيان بالنبى ، يرمونه بالحجارة ويتصايحون عليه ، حتى اجتمع الناس عليه وألجأوه إلى حائط من حوائط مدينة الطائف ، فجلس إلى الجدار بعد أن ذهب عنه بعض الرَّوع ، واطمأن بعض الاطمئنان ، واتجه إلى الله قائلا : « اللهم إليك

أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . . .
اللهم يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى
من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكتـه أمرى؟ إن لم
يكن بك على غضبٌ فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع » .

وفيم ينكر عبد الملك بن مروان سيادة قوم الحجاج وابن
عمه محمد بن القاسم ، وهؤلاء أهل مكة أنفسهم يشهدون للحجاج
بالشرف وعظم الأصل حين دخل مكة مخلصاً لها من يد عبد الله
ابن الزبير ، فقد اعتذر الحجاج لأهلها لقلة ما منحهم إياه
من الصِّلات والأعطيات ، فقال قائل منهم : إنا والله لا نعذرك
وأنت أمير العراقين ، وابن عظيم القريتين .

وما لنا نحن وللحجاج الآن ؟ إنما جئنا به هنا لأنه مع
بطلنا ابن القاسم من نبعة واحدة ، ودوحة واحدة ، أخرجت
للعرب والإسلام أشد الرجال ، وأحدّ النصال . ولقد كان بطلنا
محمد بن القاسم — فوق قرابته القريبة للحجاج — صنيعة من
صنائعه ، وسهماً من سهوم كنانته ، رمى به فى أقاصى الهند ،
ومنازح السند فأبعد المرمى ، وعاد من هناك على الملك الإسلامى
الناشئ بملك كبير . . .

وعجيب أن يلتقى هنا البطل محمد بن القاسم وابن عمه الحجاج لقاء لم يكن منه مناصٌ ولا عنه مَعدى . ونحن نردُّ بطل السند إلى أصله ، وننسبه إلى آبائه . فإذا ذُكرت ثقيف خطر على البال — فى الحال — اسم الحجاج الثقفى ، واسم محمد بن القاسم الثقفى ، كما خطرت على البال أسماء عشرات وعشرات من بنى ثقيف ، فيهم البرُّ والفاجر ، وفيهم الطيب والخبيث ، وفيهم الشهيد الذى قتل مع أمير المؤمنين عثمان ، وهو المغيرة بن الأخنس ، وفيهم الذى لم يَرْوِ سَيفه من الدماء ، وهو الحجاج .

على أننا سنلتقى بالحجاج هنا أكثر من مرة ، فهو الذى صنع بطل السند على يديه وعينيه ، وهو الذى أرسله ليخوض الغمرات فى حروب العراق ، قبل أن يبعث به على رأس الجيش العربى إلى بلاد السند ليحطم فيها الأصنام ، ويرفع فيها لواء الإسلام .

ولتكن للحجاج عيوبه وخطاياه بجانب آثاره فى توطيد دولة ، ودعم أركان أمة ، فقد كان من دهاة الرجال ، ومضت به سبيل لا يُرجى منها إلا عفو الله . أما ابن القاسم — بطل

السند والهند — فلم يكن ممن لوثتهم السياسة بأوضارها ، أو لطختهم بسواد معايبها . وإنما كان بطلا نقيًّا ، ومجاهداً تقيـًّا ، وسيفاً من سيوف الله الماضية ، سلّه الله لنشر دينه ، وإعلاء كلمته .

إن ابن القاسم لم يكن يبنى للأمويين ، كما بنى الحجاج . ولم يكن يعمل لشخص الوليد بن عبد الملك كما كان يعمل الحجاج . لقد بنى لله ، وعمل لدين الله ، وتجردت نفسه من شهوة المطامع فى حكم أو ولاية أو عمالة ، فعقد الله النصر على مفرقه وهو شاب بلغ الحلم أو تجاوزه بقليل . . .

ولقد لقى بطل السند من الجزاء ما لا يتكافأ مع حسن الصنيع ، ولقى من الجحود مالا يقاس به سوء العرفان ، وقتلته شهوات النفوس ونزوات الأحقاد ، مصطنعةً فى ذلك مكيدة افترتها — بتحريض من الحاقدين الناقمين — أميرةٌ سندية هى بنت ملك السند الذى اخترطته سيوف المسلمين الفاتحين .

أما قصة هذا البطل الشهيد ، وقصة هذا الفاتح الغالب ، وقصة هذه الأميرة التى اتخذت أداة لقتل الشاب العفيف البرىء ، المغامر الجرىء ، ففيما يلى من الصفحات . . . .

أحاديث الطفولة

جلس الشيخ محمد بن الحكم – جد بطل السند – فى داره الرحيبة بالطائف فى ليلة من عام ٧٢ للهجرة يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ، ويدعو الله أن يجعل تحت امرأة ابنه القاسم غلاماً سرياً . وكان القاسم – أبو بطلنا المستكن فى ضمير الغيب – قلقاً على زوجه نائلة حين جاءها المخاض وهى على حال من الصحة قد لا تطيق معها آلام الولاد . . . لقد كان الأب مشفقاً على زوجه ، وكان الجد متشوقاً إلى حفيد له يرى فيه استمرار الحياة فى الأحياء والأبناء ، ويحمل اسمه الذى كان أكرم ما تحمل الجزيرة العربية من أسماء .

لقد كان محمد بن الحكم ميمون النقيبة حين سماه أبوه الحكَم باسم محمد ، وحين بُشر محمد بغلام أسماه القاسم ، كما كان للنبى الهاشمى غلام اسمه القاسم . والليلةَ يتمنى أن يسمى الجنين المضمر محمداً لو وهب الله لهم غلاماً .

وما خيب الله أمنية المتمنى ، فقد هُرعت جارية فى دار

الحكم إلى محمد بن الحكم وابنه القاسم تزف إليهما بشرى غلام سعيد .

واتجه محمد بن الحكم إلى الله شاكراً ما حقق ، وجرى القاسم والبشر يتلألأ فى عينيه إلى الغرفة التى أهلّ فيها الوليد ، فطبع على جبينه قبلة ، وهو يهتف : محمد محمد !

وانطلقت البشرى فى كل ناحية من الطائف ، وفى كل دار من دور ثقيف بأن القاسم بن محمد بن الحكم وُهب له غلام سَرِىّ ، وأنه يحمل اسم جده محمد ، فاستقبلت الطائف كلها نبأ البشارة بفرح كبير .

ونشأ الرضيع كما ينشأ الرضع من أبناء ثقيف ، ولكنه لم يصحب مولده ولا شهور رضاعه خارقة من الخوارق التى تُنسبُ عادة إلى كبار الرجال ، وعظماء الأبطال . ألم يقولوا إن الحجاج حين ولد سنة ٤١ه لم يَقبل ثدى أمه إلا بعد أن لطخوه بدم جَدْى أسود وطلوا به وجهه ، فأقبل على الثدى بعد امتناع ؟ ثم ألم يقولوا إن القائد التترى تيمورلنك ولد ويداه مخضبتان بالدماء ؟ ومن هنا كان الحجاج وتيمورلنك سفاكين سفاحين للدماء .

ومن حسن الحظ أن التاريخ مر بمولد بطل السند — محمد ابن القاسم — مروراً هيناً رفيقاً متواضعاً ، فلم يخلق أسطورة حول مولده ، ولم يصنع غريبة حول رضاعه . ولكنه جعله طفلا كسائر الأطفال ، ولم ينصب حول ميلاده تلك الهالة التى تُجلل موالد الأبطال .

ولكن قد يكون من سوء الحظ أن ميلاد بطل السند والهند مر فى هدوء وصمت ونكران ، كما مرت ذكراه فى هدوء وصمت ونكران . فقد فتح الله به على المسلمين والإسلام شبه القارة الهندية ، كانت حياته القصيرة فى هذه الدنيا صراعاً وجهاداً فى سبيل الله ، ونشراً لكلمة الله . ولكنه مات ميتة الجحود والنكران ، فعُذب صبراً فيمن عذبهم الخليفة سليمان ابن عبد الملك من قوم الحجاج وأقاربه ، وضن عليه المؤرخون بالترجمة له ، والإطالة فى ذكره ، إلا أخباراً قصاراً ، أطال فيها المؤرخ ابن الأثير بعض الإطالة ، وقصر فيها المؤرخ الطبرى كل التقصير ، وذكرها صاحب فتوح البلدان وهو يذكر أخبار الفتوح .

تعالى الله الذى قسّمها حظوظاً ؛ فكما تختلف حظوظ

الناس من الرزق والمال تختلف من الشهرة والصيت . ولو عدلت الحظوظ ما قل نصيب محمد بن القاسم من الاشتهار عن نصيب عمرو بن العاص فى فتح مصر ، وخالد بن الوليد فى فتح الشام ، وسعد بن أبى وقاص فى فتح فارس ، وطارق بن زياد فى فتح الأندلس .

ولقد كان البطل المسلم قتيبة بن مسلم معاصراً لمحمد بن القاسم وأبلى فى حرب خراسان وتركستان مثل ما أبلى محمد فى السند والهند ، ولكن حظيهما من الشهرة مختلفان ، فقتيبة يعرفه الأكثرون وتوضع فيه الرسائل ، وتكتب عنه الفصول ، وتذاع فيه الأحاديث . ومحمد بن القاسم لا يعرفه إلا الأقلون ، ولم تجتمع أخباره المتفرقة القليلة إلى اليوم بين دفتى كتاب .

وفى سنة ٧٥ ﻫ عين الحجاج والياً على العراق بعد أن صنع بالحجاز ما صنع ، وادخر بذلك يداً عند الأمويين ، فكان له من الدالّة عليهم ما أقام له الأمور فى العراق على هواه ، يعين الولاة ويعزلهم بكلمة منه مسموعة عند عبد الملك بن مروان . وهنا نجد القاسم — والد بطل السند — والياً على البصرة فى أوائل ولاية الحجاج على العراق . وهنا ينتقل الطفل محمد

ابن القاسم إلى البصرة حيث أبوه يليها ، فلا يذكر من أرض الطائف وبساتينها إلا ما تختزنه ذاكرة الطفولة الباكرة من صور لا تلبث أن تأتى عليها الأيام .

ومرت الأيام والعراق مسرح للحوادث ، فالخوارج يقاتلون ويُقتلون ، وشبيب بن يزيد الشيبانى ممعن فى ثوراته ، والمهلب ابن أبى صُفرة ممعن فى قتال الأزارقة . وأكبر الظن أن أخبار هذه الأحداث كانت تطرق سمع الطفل الصغير ، كما كانت تطرق سمعه أخبار وقائع العرب مع الروم ، ومناوشاتهم مع الترك بقيادة ملكهم رتبيل .

وبلغ الوليد بضع سنوات حينما بنى الحجاج مدينة واسط بعد أن تنكر له أهل البصرة والكوفة من العراقيين ، وكان قصده من بنائها أن ينزل بها جند الشام الذين كان يعتمد عليهم ويركن فى الحروب إليهم .

وامتلأت المدينة الجديدة الناشئة بسكانها الجدد ، وكان فيها قوم الحجاج ، وفيهم الطفل محمد بن القاسم الذى شهد فى البصرة ألواناً من الناس غير العرب ، كانوا يفدون إليها للصَّفق بالأسواق ، أو لمآرب أخرى من مآرب العيش فى الحياة .

وأغلب الظن أنه لقى فى البصرة – وهو طفل – قوماً من أهل السند الذين كانوا يجوبون الأمصار وأغلب الظن أنه سمع عنهم من عجائب الهند وغرائب السند ما طوح بخياله إلى ذلك العالم البعيد الذى تفصله عنه بُحرانٌ وشُطآن . . .

وهنا فى مدينة واسط كان الطفل قد بلغ الحادية عشرة أو زاد عليها قليلا ، وبدأت أخبار الفتوح تدخل إلى أذنيه فيجد طرباً لسماعها . إنه يسمع أن يزيد بن المهلب قد فتح قلعة نَيزك وكانت من أحسن قلاع باذغيْس وأمنعها ، ويسمع بعد قليل فى العام نفسه أن عبد الله بن عبد الملك غزا بلاد الروم وفتح المصيصة وبنى حصنها .

ولم يكن هم محمد بن القاسم أن يستمع إلى أخبار الحروب دون أن يشارك فيها ، فقد تطلعت نفسه إلى خوض المعارك وهو دون البلوغ بكثير ، وهنا نجده فى فرقة أرسلها الحجاج لمقاتلة عدوه عبد الرحمن بن الأشعث ، كما نجدهَ فى جيش الحجاج نفسه الذى خرج به لقتال عبد الرحمن فى واقعة دير الجماجم .

ومن عجب أن الميادين التى تلقّى فيها محمد بن القاسم

دروس الكر والفر لم تكن ميادين مع أعداء المسلمين ، ولكن كان بأس المسلمين بينهم شديداً ، فنال بعضهم من بعض . ولعل ابن القاسم سمع أو وعى من بسالة الخوارج واستماتهم فى سبيل الفكرة ما هوّن عليه أمر الحياة فى نظر نفسه ، ولعل قُربه القريب من أحداث ابن الفجاءة وشبيب وعمران بن حطان قد أصغر فى عينيه عظيمات الأمور . فهو يخوض المعارك مع الخائضين ، ويجيد الطعن والضرب ، ويَعرف مواطن الإحجام والإقدام ، فكل خطوة عنده بمقدار ، وكل كرَّة عنده بميزان .

وأغلب الظن أن محمد بن القاسم لم يكن راضياً عن هذه الحروب التى تَلقَّى فيها أول دروس الجندية ، فلقد ضاق هو كما ضاق كثيرون غيره بهذه التارات والثورات التى لم تضع أوزارها بين العرب ، وماذا ينفع المسلمين أن يقتل ابن الأشعث أو محمد بن موسى بن طلحة ، أو عبد ربه الكبير ، أو بجير ابن ورقاء وغيرهم من عشرات الرجال الذين يزدحم بهم تاريخ حُكم عبد الملك بن مروان ؟

لقد تذكر محمد بن القاسم فتوح المسلمين فى أيام عمر ، بل قفزت إلى ذاكرته تلك الأنباء الضئيلة التى ترامت إلى طفولته

الباكرة عن فتح حسان بن النعمان لأفريقية ، وما صَنعَ بالكاهنة التى كانت تملك البربر ، وكانت عظيمة المحلِّ عندهم ، والتى ألَّبت البربر على المسلمين ، فذاقت وبال أمرها على يد حسان ابن النعمان .

وتذكّر تلك الأحاديث عن الهند التى كان يحملها التجار وجُوَّاب الآفاق عن تلك الأرض الساحرة التى كان ينصبُّ الذهب فيها على إلههم بوذا وسدنته وحراس بيوته ، وأوثانه المنتشرة فى كل مكان .

وعز عليه أن يرى فى العراق قوماً يقتتلون فيما بينهم ، على حين أن هناك — خارجَ جدول المملكة الإسلامية — رقاعاً فسيحة من الأرض ، تخيم عليها ضلالات الجاهلية التى كانت سائدة فى شبه الجزيرة العربية ، ويعبد أهلها من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم ، ويسودها ظلام كثيف ضرب عليها قروناً وأجيالا ، فحجب عنها منافذ الضياء .

فإلامَ تظل هذه البقاع الفساح بيداً لا نجاة فيها لسائر ، ولا دليل فيها لحائر ؟ ولماذا لا يتجه المسلمون إلى هذه الأصقاع ؟

عهد المسلمين بالسند

كان الفتى محمد بن القاسم يسمع كثيراً عن السند والهند منذ طفولته الباكرة ، حتى راوده خيالهما وهو حديث عهد بالوِلادة . ولم تكن السند فى ذلك الحين غريبة كل الغرابة على المسلمين ، فقد كان لهم فيها سابقة من غزو فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وفى إمارة عبد الله بن عامر على البصرة . نعم ! فبعد العام الثلاثين من الهجرة بقليل ، كان عبد الله ابن عامر يرسل البعوث من ثغر البصرة إلى ما جاوره أو بعد عنه قليلا من ثغور بحر فارس والمحيط الهندى ، وكان ثغر السند مما وقع عليه نظر ابن عامر ليزيد به شيئاً فى رقعة المملكة الإسلامية .

وعين ابن عامر رجلا من رجاله ، هو عبد الله بن سوار عاملا له على ثغر السند ، وانصرف إلى حروبه مع فلول الفرس حتى قتل يزدجرد آخر ملوكهم فى عهد إمارته على البصرة سنة ٣١ هـ .

وتختفى أخبار السند من مسرح التاريخ الإسلامى بعد غزو ابن عامر لها وولاية ابن سوار عليها فى عهد عثمان ، وتظل عشرة أعوام فى موادعة مع المسلمين ، إلى أن يجىء عام ٤٤هـ ، ويعين الحكم بن عمرو الغفارى والياً على خراسان ، فيرسل من لدنه محارباً جلداً على القتال ليغزو ثغر السِّند من جديد، هذا المحارب هو المهلب بن أبى صفرة الذى اشتهر بعد ذلك بقتال الخوارج وأبلى فى محاربتهم أصبر بلاء .

وتختفى السِّند من مسرح الحوادث أعواماً أخر ، يكتفى فيها خلفاء بنى أمية بإرسال عامل من قبلهم عليها يجمع خراجها القليل الضئيل ، وقد يكون هذا العامل موضع الطمع من منافسين أشداء له ، يقبلونه على أمره ويريحون الثغر من ولايته ، كما حدث فى أول عهد الحجاج بولاية العراق .

فنى سنة ٧٥ هـ — وهى السنة التى عين فيها الخليفةُ عبد الملك بن مروان الحجاجَ والياً على العراق — اتخذ عبد الملك عاملا له على ثغر السند هو سعيد بن أسلم بن زرعة ، ولم يكن سعيد هذا ممن تُهاب سطوته ، أو تخشى صولته ، فقد خرج عليه أخوان ثائران طامحان من ولد الحارث ، وأقلقا

عليه مضجعه بالليل ، وسدّا عليه سبيل النهار . فقتلاه وغلبا على البلاد . فبعث الحجاجُ إلى ذلك الثغر الثائر القلق برجل من تميم يتحرق قلبه ، ويتلظى حبًّا للغزو والمجاهدة فى سبيل الله ، هو مُجَّاعة بن سُعر التميمى ، فغلب على الثغر ، وأقر الأمور فيه على حال تسمح له بمواصلة الغزو على نطاق ضيق ، فغزا وفتح أماكن من إقليم قندابيل ببلاد السند . ولكن الموت كان راصداً له فلم يمهله حتى يستوفى العامُ أجله ، ومات بمكران .

كانت الجالية العربية الإسلامية الناشئة فى بلاد السند تتسع قليلا قليلا وتقوم بينها من المصالح ما يقتضى سهر العمال عليها وقيامهم بأمورها . وكان هناك جزيرة صغيرة اسمها جزيرة الياقوت يحكمها ملك من ملوك السند ، وكان فى الجزيرة نسوة وُلدن فيها مسلمات ونشأن على الإسلام من آباء مسلمين ، ومات هؤلاء الآباء وظل النسوة بلا حام لهن ولا راع ، فأراد مَلكُ جزيرة الياقوت أن يتقرب بهن إلى الحجاج فيهديهن إليه ، وأرسلهن فى سفينة أخذت تشق طريقها إلى البصرة ، وفيما هى سائرة على وجهها إلى قصدها ، إذا بجماعة من قراصنة الديبل يخرجون فى بوارج لهم خفيفة ، فيأخذون السفينة بما فيها

من المتاع ومن فيها من النساء . وهنا يرتفع صوت واحدة منهن مستغيثة قائلة: يا حجاج! كما ارتفع بعد ذلك فى العصر العباسى صوت عربية مستغيثة بالخليفة العباسى قائلة : وامعتصماه ...

ولم تضيع أمواج البحر ولا هديره ولا زمجرة رياحه صوتَ ذلك النداء الخارج من قلب عربية كسيرة ، فى رفقة أخوات لها كسيرات ، وإذا كان النسيم فى رقته ينم على العشاق فيذيع أخبارهم ، أفلا تحمل الرياح فى قوتها صوت الضعيفات المهيضات إلى من يخفُّ للنجدة ، ويسرع للمعونة ؟ لقد بلغ ذلك الصوت المتكسر المضطرب مسامع الحجاج ، فيقول المؤرخون إنه قال : لبيك ! لأن العربى سريعٌ بطبعه إلى النداء ، فما بالكم إذا كان لنجدة النساء ؟

وسلك الحجاج أول الأمر طريقه الدبلوماسى ، فقد كان داهية فى السياسة والدبلوماسية ، فأرسل إلى ذاهر ملك السند يسأله تخلية النسوة اللائى أخذهن قراصنة الدّيبل إحدى بلاده. فردّ ذاهر ردًّا لعل الله قصد به أن تصير الأمور فى السند إلى المصير الذى نحن مقبلون على وصفه، من ضياع مملكة واسعة ، وفتح بلاد شاسعة ، والتمكين للعرب والإسلام من بلاد

رحيبة الأرجاء ، وإعلاء كلمة الله فى بلاد كانت للأصنام البوذية فيها دولات وسلطان .

لقد رد ذاهر ملك السند بأن الذين خطفوا النسوة العرب لصوص لا يقدر عليهم ، ولا ينبسط سلطانه على سلطانهم ... وبذلك مهد للحجاج الأعذار فى غزو بلاده التى لا يستطيع فيها — وهو ملك — حماية ضعيف ، ولا إغاثة لهيف .

فأرسل الحجاج جماعة من المقاتلة على رأسهم ابن نبهان إلى مدينة الدَّيبل مهد القراصنة ، ووكر لصوص البحر الفاتكين ، فقتل القائد ابن نبهان ، وانكسرت روح جماعته لمقتله ، فأرسل الحجاج يستقدم جنديًّا اسمه بديل من عَمان ، ويأمره أن يسير إلى الديبل ، يقاتل أهلها من لصوص البحار وقطاع الطرق ، فلقيهم بديل فى شجاعة فائقة ، واستماتة بالغة ، ولكن الحظ قد أخلاه من طريق الفتح للسند ، كما أخلى القائد مجّاعة من قبله ، ليفسح الطريق للقائد الموعود ، والفاتح المنشود : محمد ابن القاسم .

ومن عجب أن يموت بديل بأسباب شجاعته ، وأن تكون منيته فى فروسيته ، فقد نفر به فرسه نفاراً لم يستطع معه له كبحاً ؛

ولا له ردًّا ، فأحاط به العدو من مقاتلة الديبل وأهل السند فقتلوه . . .

وهنا كانت الأسباب كلها تلح على الحجاج فى إرسال جيش كبير إلى بلاد السند ، يؤدب به العصاة ، ويفتح به الأرض ، ويحقق نصر الله الذى وعد به من ينصره .

فمن يكون ذلك القائد لجيش السند الذى تخبئه لهـــا الأقدار ؟

على الأهبة

دخل محمد بن القاسم على ابن عمه الحجاج مغاضباً حين ترامت إلى أسماع المسلمين هزيمة البعوث الصغيرة التى أرسلت فى ولاية الحجاج إلى ثغر السند . وكان قلب الشاب الشجاع يتميز من الغيظ على المصير الذى لقيه ابن نبهان ، وبديل ، وهما يريدان الثأر من قراصنة الديبل . وهل عقِم نساء العرب عن أن يلدن أشباه القواد من أمثال خالد بن الوليد والزبير بن العوام ، وأبى عبيدة عامر بن الجراح ، وسعد بن أبى وقاص ؟

وانفجر الشاب أمام هيبة ابن عمه الحجاج ، لا يخاف ذلك الداهية الذى أخاف قلوب أهل العراق . وقد كان لصلة ابن القاسم القريبة بالحجاج ، ومكان الدالة عليه منه ، ما جعله يُصرح بالمقال ، ويندفع فى الكلام ، ويسرف فى الملام ، لا خائفاً ولا وجلا ، وهو يقول :

— مولاى وابن عمى ! لعل مصرع الشهيدين فى غزاة السند قد هز أعطاف قلبك ، كما اهتزت له أركان الدولة ،

فماذا أنت فاعل ؟ لقد اختطف قراصنة السند من مدينة الديبل بعضَ النسوة المهديات إليك ، وردّ عليك ملك السند ردًّا لا يحمل العجز قدر ما يحمل الاستخفاف بالمسلمين ، ونية الغدر بهم . وغداً يجترئ عليك أهل السند ، وينتقض على الدولة ملوكهم فيستردون الأرض التي كسبناها من عهد الخليفة عثمان بن عفان . ولقد أجبت نداء المستغيثة بلك ، ولكن جندك لم يحقق نصراً ، ولم ينصف ظلماً ، ولم يسترد الأخيذات الضعيفات . ولقد جئتك من فارس لعلى ألقى الله فى أرض السند فأظفر هنالك بأجر الشهيد . فهلا أرسلتنى إلى ثغر السند ؟

— نعم الروح روحك يا بنى ، ونعم الجهاد جهادك ! وإنى مسيرك فى جيش على رأسه أبو الأسود جهم .

— والله يا أمير العراق ما يضيرنى أن أكون جنديًّا صغيراً لقائد من قوادك كأبى الأسود ، ففيه بلاءٌ ، وفيّ طاعة. وما أنا ممن يخالف لعاجل مصلحته ، فأبق أبا الأسود بفارس فإن الحاجة إليه ماسة ؛ والخبرة ، فيه مرجوة ! وقد عرف الطرق وسلكها ، وبلا المواقعَ واختبرها ؛ وأرسلنى أنا إلى السند آتيك

بالأخائذ اللائى اختطفهن اللصوص ، وآخذ لك وللعرب بثأر اثنين من خيرة قواد المسلمين ، وبعدها يفعل الله ما يريد ...

ــ ولكنك يا بنى فى مثل سنك الباكرة لا يجوز أن تنعقد لك قيادة على جيش ، فإنك فى عامك السابع عشر ، وفى المسلمين غيرك من تقدمه سنه ، ويؤهله عمره ليكون على رأس جيش الخليفة إلى السند .

ــ ومتى كان السن يا أمير العراق حائلا بين المرء وبين ما يستحقه من عمل ؟ وليس ذنبى أنْ تأخر بى الميلاد إلى ما بعد العام السبعين من الهجرة ، وتقدم بغيرى قبل ذلك بعشرات السنين ؟ فاختبر بلائى يا ابن العم هذه المرة ، وأرجو أن يحمدك الاختبار !! فابتسم الحجاج ابتسامة تحمل من المعانى ما لا يخفى على الشاب المقدام وقال :

ــ وكيف يصح يا بنى أن أجعل مصالح المسلمين موضع الاختبار لديك ، ما دام فى ذلك مندوحة عنك باختبار غيرك من شيوخ الحرب ودهاتها ، ممن لهم سابقة قدم فى الميادين ؟ وفيم تتعجل يا بنى القيادة وهى آتية لك مع الأيام ؟

ــ يا أمير العراق ! لقد حزننى مصرعُ شهيدين فى بلاد

السند لم يبرح خيال الدم المتقطر منهما يؤرق ليلى ، ويُقلق نهارى ، فهلا جعلتنى لهما ثالث الشهداء ؟

— يا بنى ! أخشى أن تقول الألسنة إن ابن يوسف الثقفى يحابى أهله ويصانعهم ، ويؤثرهم بالمناصب على غيرهم من أبناء المسلمين .

— ولكننى يا أمير العراق لا أطلب منصباً ، ولا أطالبك برزق ، وإنما أطلب منك أن تعيننى على موتة فى سبيل الله ، فأعنى على الموت يَهبْ لك الله الحياة !

— تأبونَ يا بنى ثقيف إلا أن تسبقوا إلى الفضل ولو على أطراف الرماح ! فُخذ يا بنى سيفك وامض لوجهك على بركة الله ، وكن — من الآن — عاملا لبنى أمية على ثغر السند . وسيأتيك كتاب الخليفة الوليد بن عبد الملك بإقرار العهد لك .

* * *

ومضى محمد بن القاسم والفرح يملأ مسالك نفسه ، وأخذ يعد للغزو عدته ، ولم يتركه الحجاج يستقل وحده بتدبير أمر الجيش الجديد، ولكنه أخذ يجهزه بكل صغيرة وكبيرة مما يحتاج إليه فى ساحة القتال ، بعيداً عن قواعد الإمداد ، ومراكز التموين . . .

ولم يترك الحجاج صغيرة إلا أمدّ بها ذلك الجيش الذى يعلق عليه المسلمون أكبر الآمال . حتى الخيوط والمسالّ والإبر مما يحتاج إليه فى رفو الثياب ،ورتْق العياب ، كانت مما جهز به الثقفى جيش السند المتأهب للقتال .

وأعجب من هذا أن يفطن الحجاج إلى حب العرب للخلّ فى طعامهم ومعيشتهم ، يطبخون به ويصطبغون ، والخل فى بلاد السند ضيق شحيح ، فكيف سبيل جيشه إليه وهو مما يثقل حمله فى الدنان على ظهور المطايا ومتون الدواب ؟ لقد فكر الحجاج فى حيلة لطيفة يزود بها جيش السند بحاجته من الخل فى غير مشقة من الأحمال الثقال... لقد أمر بالقطن المحلوج فنقع فى الخل ، ثم جفف فى الظل — حتى لا تبخره الشمس — ووضعه خفيف المحمل مع ما وضع من الذخيرة وميرة القتال .

وسير الحجاج مع البطل الشاب ستة آلاف مقاتل تتحرق نفوسهم إلى الشهادة فى سبيل الله ، وقد خرجوا من ديارهم على نية البيعة لله ولدينه ، فإن قُتلوا فلهم أجر المجاهدين ، وجزاء الشهداء الصالحين ، وإن عاشوا فإن حياتهم لله موهوبة ، لا يضيرهم أن يَسبق إليها الدعاء ، أو يتأخر بها النداء ...

صنم محطم

اندفع محمد بن القاسم ووراءه جنوده كالسهم يمضى إلى رميته فى مضاء وتصميم وقصد للهدف لا يحيد عنه ولا يميد. وخرجوا تسيل بأعناق مطاياهم البطائح ، فسار محمد إلى مكران فأقام بها بضعة من الأيام ، ثم أتى مدينة قنزبور ففتحها ، ولم يجد فى فتحها كبير عناء ، ثم اتجه إلى مدينة أرمائيل ، فلقى فيها مقاومة لم تقوَ على حماسة جيشه وصبرهم فى القتال فسلَّمت المدينة .

وكان تعريج ابن القاسم على هاتين المدينتين فى طريقه إلى مدينة الديبل هو من باب التمهيد للغزوة الكبرى ، فمضى بعد فتح إرمائيل على غايته إلى المدينة التى كان منها متلصصة البحار وقرصانه — الديبل — فنزل بها وكان اليوم يوم جمعة ، وكأنما كان هو والسفن الإسلامية التى تحمل السلاح والأداة وبقية الرجال على ميعاد ، فوافته قطع الأسطول الأموى فى اليوم نفسه . والتقى الجمعان من بعوث البر وبعثة البحر فى مدينة

الديبل ، وخندق القائد الشاب ، وأنزل الناس منازلهم ، على عادة العرب حين يقاتلون .

ونصب ابن القاسم منجنيقاً ضخماً أحضره معه فى جملة عتاده ، يقال له العروس . وبلغ من ضخامته أن خمسمائة رجل كانوا يد يرونه فى ساعة الرمى . واتخذ القائد الشاب موضع العروس أمام صنم هائل الحجم ضخم البناء ، تهوى إليه أفئدة العباد من أهل الهند والسند ، يعظمونه ، ويقربون إليه القرابين ، وينحرون له الذبائح على نحو ما كان يفعل العرب فى جاهليتهم قبل أن يمن الله عليهم بالإسلام ، والخروج إلى النور من الظلمات .

وكان صنم الديبل – أو بُدّها كما أسماه العرب الفاتحون – ترتفع فوق هيكله الضخم سارية عظيمة ، عليها راية حمراء واسعة الأطراف ، حتى لقد بلغ من سعة رقعتها أن الريح إذا هبت عليها كانت تدور فتطوف بالمدينة المقدسة فى دورانها فتهفوا إليها أفئدة الألوف المؤلفة من أهل المدينة . وقد رُكزت هذه السارية العالية على منارة عالية فوق بناء البد العظيم .

وكان مما وضعه ابن القاسم من خطة للغزو أن يقصد هذا الصنم الهائل الضارب فى عنان السماء كأنه جبل يطل على

الأرض من شاهق أو يزحم النجوم فى مدارها ، فيصيب منه ثلمة ، فتنثلم معه حينئذ قلوب المقاتلين من أهل السند ، وتنكسر أرواحهم ، وتذهب أنفسهم حسرات على المعبود المقدس الذى يعظمونه ويجلونه ، وينزلونه منازل التقديس .

ولقد عرف ابن القاسم ذلك فيما عرف ، مما كان يتلقفه من أخبار السند وهو فى البصرة طامل طرى الإهاب . فأحكم الخطة لذلك ، وجلب معه المنجنيق الهائل : العروس ، حتى لاتقف فى سبيله مناعة حصن ، ولا متانة جدار ، ولا ارتفاع أسوار ...

وحاصر البطل الشاب ما حول الصنم العظيم من جميع أطرافه ، وأطال الحصار حتى ضاقت نفوس أهل البد عليهم . واستيأسوا من الخلاص . والتقت أذرُع الرماة فى مرامى العروس كأنها ذراع رجل واحد ، ورموا سارية البدّ بحجر ضخم . فانكسرت السارية وانحنت قامتها المرتفعة أمام منجنيق هائل . فتطير المقاتلون من السند بذلك وتشاءموا ، وخشوا أن يكون ذلك نذيراً بدوران الدائرة عليهم . فخرجوا مندفعين من داخل المعبد ومن أبهاء البدّ ومضايقه ، وحملوا على المسلمين حملة المستأيس ، ووثبوا وثبة المضيق عليه حين يشتد به الأمر ، وتنسد عليه سبل

النجاة ، فيضرب على غير هدى لعله يلتمس مخرجاً من ضيق ، أو منفذاً من محبس . . . فهجم عليهم ابن القاسم برجاله هجوم الواثق من النصر ، وردهم إلى داخل الصنم محصورين لا يستطيعون خروجاً إلى الموت الذى ينتظرهم خارج البدّ ، ولا يقدرون على بقاء داخله ما دامت الذخيرة محدودة ، والزاد بمقدار .

وكانت جدران البد من الضخامة وعلو السمت بحيث لا يصل إليها متسلق إلا إذا صعد إليها على سلم منصوبة ؛ فأمر ابن القاسم بالسلالم فنصبت . ولكن مَنْ يَصعد إليها ليلقى ضربة من عدو راصد داخل الصنم ، أو رَمْية من خاتل وراء الأسوار ؟

وهنا يستحضر المسلمون ما حدث فى واقعة حصن بابليون بالفسطاط ، أيام الفتح العربى لمصر على يد عمرو بن العاص . ألم يستعص ذلك الحصن العتيق الرصين على العرب الفاتحين ، فإذا بالزبير ابن العوام وقد أتى بسلم فصعد عليه ، حتى أوفى على الحصن من شاهق ، وهو مجردٌ سيفه حَذَر المباغت ، فكبَّر وكبر معه المسلمون تكبيرة رجل واحد ، ففتح الحصن

عنوة ، وانقادت مقالده للعرب بعد طول شماس ؟

نعم ! لقد كان فى مُقاتلة المسلمين بالسند من يَذكر هذا الموقف لابن العوام فى فتح مصر ، فلم لا يكون هنا ابن عوام آخر ، ما دام الإسلام يصب رجاله على غرار كريم ؟ لقد نهض رجل من قبيلة مُراد من أهل الكوفة ، وفعل كما فعل ابن العوام فى أرض الأهرام !

لقد كان هذا الفتى المرادى أول من صعد على السلم وتبعه الرجال ، ففتح حصن الصنم عنوة واستحرّ القتال ثلاثة أيام ، لم يذق المتحاربون فيها طعماً للشراب والطعام والمنام .

وما أعجب التاريخ أحياناً حين يَنسى أسماء الرجال عن غير قصد ولا نية فى إغفال ! فإنه ضن على هذا الفتى المرادى السابق إلى تسور الحصن بأن يذكر اسمه ، ولكنه اكتفى من ذلك برده إلى قبيلته من بنى مراد . . . وما يبالى المجاهد حين يجاهد فيقتـُل فى سبيل الله أو يُقتل ، أن يُذكر اسمه أو يهمل ، أو يسجل اسمه أو يُغفل ، ما دام أدى لله والضمير والواجب ما عليه من حقوق واجبة الأداء .

لقد سقطت مدينة الديبل وسقط معها صنماً إلى حيث

لا رجعة لأوثان ولا عبادة لأصنام . وكان ذلك فى سنة ٨٩ من الهجرة . واستبد الخوف بوالى مدينة الديبل وعاملها السندى من قبل الملك ذاهر ، فأسلم ساقيه ممعناً فى الهرب ، ملتمساً النجاة بنفسه . وأنزل ابن القاسم أربعة آلاف من رجاله فى المدينة التى كانت بالأمس القريب واترة للمسلمين بخطف جماعة من نسائهم وهن فى الطريق إلى أمير العراق . . .

واختط محمد بن القاسم فى المدينة المغلوبة على أمرها خططاً وأحياء للمسلمين ، لينزلها أربعة الآلاف من جنده النازلين . وأقام بها مسجداً يرتفع من مئذنته التكبير ، باسم الله العلى الكبير ، بعد أن سكتت أصوات الطواغيت . . . .

على ظهور الافيال

ترك بطل السند حاميته القوية فى مدينة الديبل ، بعد أن فتحها بالسيف عنوة ، وسار عنها إلى مدينة البيرون ، وهى المدينة التى ينسب إليها الفيلسوف المؤرخ المسلم أبو الريحان البيرونى من علماء القرن الخامس الهجرى .

ولم يدر ابن القاسم ، وهو فى طريقه إلى البيرون — أن أهلها كتبوا إلى الحجاج فى العراق مصالحين ، فإذا ببطلنا يقابل أهل هذه المدينة المسالمة وهم يخرجون إليه بالميرة ، ويمدونه بالمعونة ، وفاءً بعهد مصالحتهم ، وإذا بهم يفتحون له المدينة على ذراعيها ، فيدخلها ابن القاسم بلا قتال ولا نزال . فيسير عنها بطل السند ، وهو لا يمر بمدينة إلا فتحها .

وآثر بعض أهل السند العافية على قتال لا يخرجون منه إلا بكثرة المقتلة فيهم ، ووطأة الهزيمة عليهم ، ففضلوا المصالحة على الوقوف فى معركة خاسرة. ومن هؤلاء أهل المدينة سربيدس ، فكانوا أعقل من أن يبادلوا بحرب لا نهاية لها إلا الخسارة عليهم ،

والنكال بهم ، فصالحوا البطل الشاب ، ووظف على مدينتهم الخراج . أما أهل مدينة سهبان فقد ركبوا رءوسهم ، فكان جزاؤهم أن فتحت بلدتهم عنوة ، بعد أن أعمل المسلمون فيهم سيرفهم الظمأى إلى رى الدماء . . .

وقد أثمر الدرس القريب الذى ألقاه ابن القاسم على أهل سهبان ، فخرج منه أهل سدوستان بالعافية ، بعد أن طلبوا الأمان والصلح ، فأمنهم بطل السند وآمنهم من خرف ، ووظف عليهم خراجاً قبلوا أن يدفعوه عن يد وهم صاغرون .

كان عمال ذاهر ملك السند وولاته على الأقاليم يسقطون رجلا إثر رجل ، ولم يستطيعوا مغالبة هذا الشاب الجرىء الذى وفد إلى بلادهم وحشو ثيابه همة لا تصدها عقبات ولا أهوال . أما الملك ذاهر نفسه فكأنما كان فى غفلة عما أصاب ملكه الذى بدأت تنهار قواعده ، لقد كان منصرفاً إلى أمواله وجواريه فيما وراء نهر مهران ، وكأن ذلك الجيش العربى النازل على أرضه لا يستحق منه أدنى التفات ، ولا أقل اهتمام ، وكأن أنباء سقوط الديبل ، ومصالحة بيرون ، وفتح سهبان ، وتسليم سدوستان وإيغال العرب الفاتحين فى البلاد لم تصل إلى مسمعه

المشغول بأنغام القيان . . . أو كأنه سمع وَصلك النبأ بعد النبأ أذنه ، ولكنه مستخف ، بالعرب مستصغر لأمرهم ، معتزم لقاءهم فى موقعة تدور فيها الدائرة عليهم فى حسبانه !

وعبر ابن القاسم نهر مهران فإذا به يلقى الملك ذاهر وهو على فيل مُطهم كأحسن ما تُطهم الجياد ، وعليه عُدة كأوفى ما تكون عُدة الخيل ، وحوله الفيلة بركبانها ، تحيط به إحاطة السوار بالمعصم ، وتقيم من حوله الأسداد ، حتى لا يناله عدو ، ولا يظفر به محارب ، ولا يستهدف منه مقتل لنبل نابل ، أو طعن طاعن ، فهم والفيلة الضخامُ بطانة للملك ، وسداد له من كل ثغر ينفتح عليه فى معمعان القتال .

ورأت الخيل العربية هذه الفيلة الضخمة فنبضت بها كرائم عروقها . . . ورأت الفيلة المهولة المفزعة هذه الخيلَ كأنها جن تحمل على صهواتها بَشراً كالجن ، فجن جنونها ، وسمع من جماعتها صَئِىٌّ (١) غطى على تصهال الخيل ، حتى استحالت المعركة إلى قطعة ترعد بالهزيم . . .

واقتتل الجمعان قتالا لم يُسمع بمثله كما يقول المؤرخون .

---

(١) الصئى : صوت الفيلة .

ولم تثبت الفيلةُ ولا فيالوها فى مقام تزل فيه مواطئ الأقدام ، وتتخلخل فيه السيقان ، وتنخلع له قلوب الشجعان . ورأى الملك المغلوب ذاهر أن ظهر الأرض أثبت من الفيل ظهراً ، فترجل والدروع تدفع عنه من الضرب ما تقدر على دفعه ، إلى أن سقط إعياءً فقتل بعد أن مالت شمس النهار إلى غروب .

وكان مقتل الملك ذاهر بيد فارس عربى غضّ الإهاب ، شديد البأس ، شجاع النفس ، خاض الصفوف َغير ُمبال بما هو ُمقبل عليه ، وَفرج الجموع غير عابئ بما قد يتعرض له . فلما َجندله بسيفه قال مفاخراً :

الخيل تشهد يوم ذاهرَ والقنا ... ومحمد بن القاسم بن محمد
أنّى فرجت الجمع غير ُمعرد[1] ... حتى علوتُ عظيمهم بمهند
فتركته تحت العجاج ُمجندلا ... متعفر الخدين غير موسد...

وهنا لم يغفل التاريخ اسم قاتل الملك ذاهر ، كما أغفل اسم الفتى الجرىء الذى كان أول صاعد على السلم ليتسور حائط البدّ . فقد روى أحد المؤرخين أن اسمه القاسم بن ثعلبة ابن عبد الله الطائى .

---

(١) عرد الرجل الطريق إذا انحرف عنه .

وكان مقتل ذاهر ملك السند إيذاناً بغلبة العرب الفاتحين على بلاد السند كلها ، وإعلاناً بأن مقاومة أهل البلاد غير مجدية ، بعد أن قتل ملكهم ، وتفرقت جموعهم . . .

ومضى بطل السند الشاب ممعناً فى البلاد ، لا يصده حصن ، ولا تقف فى طريقه عقبة ، ولا ترهبه فلول جيش مذول ، فاتجه إلى مدينة راور وكان الملك ذاهر قد اتخذها مرتعاً لإحدى نسائه ، ففتحها ابن القاسم عنوة ، بعد أن رفضت المصالحة . وأخذ الأمان ، وخافت امرأة ذاهر أن تقع أسيرة فى يد العرب فأحرقت نفسها وجواريها وجميع ما تملكه من طائل المتاع ، وغزير الأموال ، ونفائس الألطاف .

على أن امرأة ذاهر لا تهمنا فى هذا السياق إلا على قدر ما يسمح به الخبر المروى ، فهى وقصة انتحارها بإحراق نفسها وجواريها لا تحمل للعرب مغمزاً لغامز ، ولا مطعناً لطاعن . فقد كان المسلمون الفاتحون أشد الغزاة حفاظاً على الحرمات ، وصيانة للأعراض ، وتصوناً مع النساء ، حتى كانت آدابهم فى القتال، وأخلاقهم فى الحروب ، مما يصح أن يكون دستور المقاتلين على العصور ، ما دام الله قد كتب على الناس

أن لا تنزع نوازع القتال من نفوسهم . . .

فلا حاجة لقائل أن يقول معتذراً من فعلة امرأة ذاهر بأن ذلك الذى صنعته هو من عادات أهل الهند فى قديم الزمان .

أما الذى يهمنا فى قصة بطل السند والهند فهو قصة «سيتا» ابنة الملك ذاهر . فقد أحبها ابن القاسم ، ولكنه ما تعلق منها بريبة ، ولا هم معها بما يهم به المحبزن حين يُغطى الحب على أسماعهم وأبصارهم . . . ولكنه صان كرامتها وعفتها كأكرم ما تصان بنات الملوك . إلا أن مصرع أبيها على يد رجل من رجال ابن القاسم قد أوغر صدرها ، وملأ قلبها ، فخامرت مع الفلول المتناثرة من أمراء البلاد ، وشاركت فى مريب الخطط بما لم يدع مجالا لابن القاسم فى تبرئتها من الخيانة لخطط الفتح ، فأرسلها أسيرة إلى بلاط الأمويين حيث كان لها شأن مع بطل السند والهند سنعرفه عما قليل . . .

ثغر بيت الذهب

لم تقف ببطل السند غاية بعد مقتل الملك ذاهر ، وكان على يقين أن بلاد السند لن يقفَ معقل فيها ، ولا حصن بها ، ولا مدينة من مدائنها فى طريق فتوحه . وماذا يبقى لجماعة — مهما كان أمرها — بعد أن كانت جموعها تنهزم فى كل لقاء أمام جيش غالب بإيمانه ، قوى بيقينه ، خرج فى الله غازياً ، ولدين الله داعياً ؟

مضى ابن القاسم فى طريقه إلى مدينة برهمنا باذ العتيقة ، وكان لها فى السند مكانة تاريخية مرموقة ، وقد جمع فيها المنهزمون من أهل السند ما بقى من فلولهم ، ليلاقوا بها البطل الذى تعوّد لقاء الجيوش لا لقاء الفلول . . .

وقاتلهم ابن القاسم قتالا أزالهم عن مواقعهم ، وأفنى كثيراً منهم ، وخرب كثيراً من ديارهم .

وغادر البطلُ المدينة العتيقة وهى أطلال متخربة ، ورسوم متداعية ، ومضى على وجهه من الغزو يُريد مدينة الرور ، وفى

طريقه إليها لقى أهل مدينة ساوندى ، وقد صفرت أيديهم من السلاح والرماح وعدة القتال ، ورفعوها مطالبين بالأمان بعد الذى بلغهم من أنباء المدن السندية المتخربة بلداً عقب بلد ... فأعطاهم ابن القاسم الأمان ، واشترط عليهم ضيافة المسلمين ، فنزلوا على الشرط راضين ، ثم دخلوا كلهم فى الإسلام بعد ذلك بقليل .

وأصبحت أرض السند بعد ذلك تدنو للبطل ابن القاسم ويُطوى له بعيدها . . . وإذا هو عقب ذلك بمدينة بسمد ، فلم يرفع أهلها السيوف إلا ليطووها فى الأغماد ، طلباً للصلح الذى لم يبخل به عليهم .

وهنا كانت مدينة الرور على مرمى النبال من جيوش المسلمين ، وهى مشرفة على جبل من جبال السند ، والطريق إليها وعر ، والمرتقى إليها عسير ، فظل بطل السند ضارباً عليها الحصار شهوراً ، إلى أن صالحه أهلها فقبل منهم الصلح ، ومضى إلى مدينة السكة ففتحها ، ولم ينته به المطاف عندها ، وإنما جاء إلى نهر بياس فاجتازه فى طريقه إلى الملتان .

ولقد كانت الملتان أحد الأهداف العظام التى يرمى إليها

ابن القاسم من غارته على السند ، فهى مدينة كبيرة عتيقة ، ولها من التقديس عند أهل السند ما يفوق مدينة الديبل ، ففيها البدُّ العظيم أو الصنم الكبير ، الذى تُهدَى إليه الأموال ، و يأتى الناس إليه من كل فج عميق ، وتهوى إليه الأفئدة ، يحلقون رءوسهم ولحاهم عنده ، ويتقربون بالقرابين إليه ، ويتزاحمون بالمناكب كأنهم فى ساعة الحشر للعبادة فيه . وتزدحم ساحاته وأبهاؤه وحماه بالوفود التى لا ينقطع سيلها ، والحجيج الذى لا يسكت تدفقه . وقد بلغ من ضخامته ورحابته أن عدد سدنته والقائمين على خدمته بلغ ستة آلاف كاهن ، يقيمون فيه الليل والنهار ، ويستقبلون فيه القادم ، ويودعون المفارق ، ويقيمون فيه الشعائر والمناسك ، فهو مدينة فى مدينة، وهو بلد فى بلد . . .

جاء ابن القاسم إلى مدينة الملتان بما تحمله من حاضرها وغابرها ، فقاتله أهلها فحاصرهم رشدد عليهم الحصار ، وظن أنه لن يطول بهم الأمد ، فستنفد ميرتهم من الطعام المخزون ، والماء المحفوظ ، وهناك سيلجئهم الجوع والعطش إلى التسليم . ولكن الحصار طال إلى أجل تأكد معه المسلمون أن الماء ليس

مخزوناً عندهم ، وإلا لنفد من عهد بعيد ، ولكنه يأتيهم داخل الحصن من قطع من الماء يدخل المدينة من مكان نبوء . .
وهنا تظهر الخيانة من رجل من أهل البلاد ، فيدل المسلمين على قطع الماء فيمنعونه ، فيظمأ المحاصرون ، حتى ليبلغ الظمأ بهم حد اللهاث ، فلا يجدون مخرجاً لهم مما هم فيه غير أن يسلموا ويلقوا بأيديهم ، وينزلوا على حكم البطل الجرىء الذى قتل المقاتلة ، وسبى الذرية ، وأسر سدنة البد العظيم ، وهم ستة آلاف كما سلف القول .

ودخل الفاتحون غُرف المعبد فى الصنم الكبير ، فإذا هم يصيبون هناك ذهباً كثيراً مما حمله زوار ذلك البدّ العتيق ، فتكدس على مر السنين . . . وهنا أمرَ بطل السند أن يُجمع هذا الذهب فى بيت طوله عشرة أذرع ، وعرضه ثمانية أذرع ، يُلقى إليه من كوة فى وسطه ، ومن هنا سميت الملتان : ثغر بيت الذهب ، تمييزاً لها من بقية الثغور . . .

وفى صباح يوم من الأيام القريبة من فتح الملتان والاستيلاء على بيت الذهب فيها ، كانت سفينة من سفن المسلمين تخفق شُرعُها فى الهواء ، وتضرب مجاديفها فى ماء بحر الهند ، متجهة

نحو بحر فارس لتلقى بأوساقها فى ثغر البصرة ، حيث يبلغ بها المطافِ إلى دار أمير العراق : الحجاج بن يوسف .

ونظر الحجاج فيما حُمل إليه من ثغر الملتان مما بعث به إليه بطل السند محمد بن القاسم ، فكان مائة وعشرين ألف درهم ... ونظر فى النفقة على فتح ذلك الثغر فكان مجموعه ستين ألف درهم . . . فقال : ربحنا ستين ألفاً ، وأدركنا ثأرنا ، ورأس ذاهر . . .

هدايا من السند

ظل بطل السند — محمد بن القاسم — بعد سقوط الملتان سنة ٨٩هـ إلى ٩٥ هـ وهى السنة التى مات فيها الحجاج — أمير السند كلها لا ينازعه فيها منازع ، ولا يقوم سلطانٌ بجانب سلطانه ، ولا تقضى الأمور إلا بكلمة منه ، ما عدا مدينة الكيرج التى كان ملكها يسمى دوهرا ، فقد بقيت فى غير حكم العرب الفاتحين إلى أن كان لها شأن مع مد بن القاسم بعد وفاة الحجاج بقليل .

وكأنما كتب الله لبطل السند أن يَلقى بعض الهدوء ، ويذوق طعم الراحة فى هذه السنوات الخمس بعد أن دانت له السند كلها بالطاعة ، وأقرت له بالفتح ، وسلمت عليه بالإمارة .

وانسابت الأموال فى يد البطل المغامر ، وأفاء الله عليه وعلى المسلمين من الخير ، وفتح لهم من الثراء ما استبد الملوك فى جمعه ، وما جهد الكهان فى تكديسه . وتفتحت كنوز

السند أمام المسلمين بما تحمله من تاريخها الطويل .

وَفتح ابنُ القاسم دارَ الإمارة فى السند على مصراعيها يستقبلُ الوافدين ، ويكرم النازلين، ويعطى عن سخاء فيه لاعن تساخٍ ، ويظهر أن الكرم طبيعة فى نفوس بنى ثقيف، فقد رووا أن الحجاج كان يعطى بلا حساب ، وذكروا أنه كان يضع فى كل ألف خوان فى شهر رمضان ، وفى سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس .

وإذا صح ما استظهرناه من كرم بنى ثقيف فإن بطل السند جاء على غرارهم ، ونسج على منوالهم ، فقد أعطى حتى مدَحه الشعراء بأجزال العطية ، قدر ما مدحوه بصدق البلاء فى المعارك ، وحسن الثبات فى المواقف . فهذا أبو الجويرية الشاعر يمدحه فيقول :

قل للذين بواسط وبغيرها ممن مسائله ترد وتنجح
السند ! ائت السند إن أميرها بحر يطمُّ على العفاة ويطفحُ
ما زال يعطى قاعداً أو قائماً حتى حسبت أبا عقيل يمزح

فهو يعطى على كل حالة : قاعداً أو قائماً ، كما كان هرم ابن سنان فى الجاهلية يعطى على العلاَّت . . .

والشاعر أبو الجويرية فى هذه الأبيات يُغرى أهل مدينة واسط العراقية ، التى بناها الحجاج – ويغرى أهل غيرها من المدن بأن يقصدوا بطل السند وأميرها محمد بن القاسم ، فهو بحر يفيض بالعطاء ، ويطم على مُعتفيه وقاصديه ، وما زال يعطى على اختلاف الحالات حتى حسبنا العطاء عنده ضرباً من المزاح . . .

وليس لدينا من أخبار عطايا بطل السند للشعراء والمعتفين ما تطمئن إليه النفس ، فإن أخبار الرجل نادرة مبعثرة كما سبق الكلام ، وهى فى جملتها لا تصور البطل من ناحية سخائه وعطائه ، كما أن ما قيل فيه من شعر المديح بالشجاعة والبسالة لا ينهض له بفضل أو لا يقوم له بجزاء . فلقد كان من حقه على شعراء عصره أن يطيلوا المديح فيه ، وأن يكثروا القول فى فتحاته ، ولكن حظ الرجل مع المؤرخين كحظه مع الشعراء ، فإذا كان نصيبه ونصيب سيرته من التاريخ ضئيلا قليلا ، فإن نصيبه من شعر الشعراء أقل وأضأل . . .

على أن أغرب ما قرأناه عن هدايا بطل السند من السند هو ذلك الخبر الذى ذكره أبو النعمان الأنطاكى حيث قال :

(كان الطريق فيما بين أنطاكية والمصيصة مَسبعةً يتعرض للناس فيها الأسدُ ، فلما كان الوليد بن عبد الملك شُكىَ ذلك إليه ، فوجه أربعة آلاف جاموسة وجاموس ، فنفع الله بها ، وكان محمد بن القاسم الثقفى ، عامل الحجاج على السند بعث منها بألوف جواميس ، فبعث الحجاج إلى الوليد منها بما بعث من الأربعة آلاف) فابن القاسم يبعث آلاف الجواميس من السند إلى الحجاج ، والحجاج يبعث منها أربعة آلاف إلى أرض ذات سباع ، فتستحيل تلك المسبعة إلى أرض زراعية ، تُغل أطيب الثمرات ، ويبدلها الله من خوفها أمناً . . .

ويُطرفُ بطلُ السند ويُغرب فى هداياه كما أغرب وأطرف فى فتوحه . . وهو هذه المرة يهدى إلى الحجاج من بلاد السند فيلا ، فيُجاز به البطائح فى سفينة ، ويُخرجُ فى مَشرَعةٍ نسبت إليه من ذلك الحين ، فقيل : مشرعةُ الفيل . . .

ومرة ثالثة نصادف بطل السند وهو يبعث إلى الحجاج يهديه بَشرية مما أنبتته أرض السند . . . إنه يبعث إليه بجماعة من الزُّط السند ، فيبعث بهم الحجاج إلى الشام ، ويأمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بنقلهم إلى أنطاكية . . .

الحق أن هدايا بطل السند من السند ثقيلات الأوزان ، ضخام الأبدان . . . حين توضع فى الميزان . فأين هداياه من نفائس ملوك السند الخفيفات الحمل الغاليات الأثمان ؟؟!

فتح جديد

كان محمد بن القاسم فى دار الإمارة الفخمة بالملتان حين جاءه البريد من العراق يحمل نبأ وفاة أمير العراق: الحجاج ابن يوسف الثقفى، ابن عم بطلنا ، ومعوِّده إقدامَ نفسه على المكاره فى الحروب .

وجلس البطل يستمع من رسل العراق ونعاته أنباء الميتة التى مات عليها أمير العراق ومُسكنُ فتنته ، وواضع الأمور فيه على قرار مكين . قال أحدهم — والدمعة تخنقه — وكان صنيعة من صنائع الحجاج :

— لما حضرت الوفاة ابن عمك يا أمير السند وأيقن أنه صائر لا محالة إلى الطريق التى لا يرجع منها سائر ، قال : أسندونى ؛ وأذِنَ للناس فدخلوا عليه ، فذكرت الموت وكربه ، واللحد ووحشته ، والدنيا وزوالها ، والآخرة وأهوالها ، وأنشأ يقول :

إن ذنبى وزنُ السموات والأر ... ض وظنى بخالقى أن يُحابى

فلئن مَنَّ بالرضا فهو ظنى ولئن مر بالكتاب عذابى
لم يكن ذاك منه ظلماً وهل يظ لم رَبٌّ يُرجَى لحسن المآب ؟

فحبس البطل الشاب عبرة كادت تترقرق فى عينيه وقال :

— رحمك الله يا ابن العم ! ويا أمير العراق ! إن رحمة ربك وسعت كل شىء . إن البلاد التى فتحت بتدبير الحجاج ورأيه وإمداداته وإشاراته من بخارى إلى سمرقند ، ومن فرغانة إلى السند ، لتشهدُ أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسوله ، وأنك يا ابن العم رفعت فيها للإسلام مناراً ، وبنيت فيها لدين الله مساجد ، وأن مثلى ومثل قتيبة والمهلب هم الأداة التى نفذت تدبيرك ، واتبعت خططك ، وتابعت سديد رأيك ، حتى لقد قَبل القائد المجاهد والفاتح العظيم قتيبة بن مسلم سديد رأيك حين استخلف على جند المسلمين أخاه صالح بن مسلم فكتبت إليه تلومه وتُبصره قائلا : (إذا غزوتَ فكن فى مقدم الناس وإذا قفلت فكن فى أخرياتهم وساقتهم) !

واسترجع المسلمون وجيش الفتح فى السند حين بلغهم نبأ وفاة الحجاج ، وأجمعوا أمرهم أن يمضوا فى الغزو مع قائدهم بطل السند إلى غايته ، حتى تذعن البلاد كلها لطاعة الدولة .

ودخل فى نفس بطل السند شىء من الخوف والقلق على مركزه فى إمارة السند بعد وفاة ابن عمه الحجاج ، فقد كان البطل كما أسلفنا ربيبه وصُنع يَديه . ولكن بطل السند كان يُبعد أسباب القلق عن نفسه بأن مثل الخليفة الوليد بن عبد الملك فى عقله ووزنه لأقدار الرجال لا ينتقص أجر عامل، ولا يتخلى عن رجل فَتح باسمه وبجيشه وبماله للأمويين فتوحاً لم تكن تخطر على بال .

ولقد ابتلى الوليدُ نفسه جهادَ بطل السند وعَرفَ صدقه فى الحرب وولاءه فى الخدمة معرفة اليقين، ففيم يخافُ ابنُ القاسم على مركزه ، وفيم يتسرب إلى نفسه هم ووسواس ؟

أينتظر البطل الشاب قاعداً عن الغزو ، ممسكاً عن الجهاد، حتى يأتيه عهد الخليفة الأموى وموثقه بأنه باق فى إمارة السند بعد موت الحجاج سنده ودعامته ؟ لا ! إنه لأكبرُ من أن يجزع لمثل هذا ، وما هو إلا جندى من جنود المسلمين ، عاهد الله على الطاعة ، وواثقه على الجهاد ، فلا يضيره أن يكون قائداً أو مقوداً ، وسيداً أو مسوداً .

ألم تسبق لخالد بن الوليد سابقة فى الطاعة حين وَلى الخلافةَ

عمر بن الخطاب ، فكتب كتاباً بعزل خالد من إمارة جيش الشام وتولية ابن الجراح مكانه ، فأخذ خالد الكتاب وأسره إلى ابن الجراح ، ولم يذعه بين أفراد الجيش ، لئلا تهن قوتهم ، وتتفرق صفوفهم ، ومضى فى المعركة إلى نهايتها بالنصر للمسلمين ، فسلّم كتابَ عمرَ بن الخطاب ، وسلم عليه تسليم الإمارة ؟ وأخذ موضعه من الجيش جنديًّا تحت قيادة القائد الجديد ؟

فلا يضير بطلَ السند بعد هذا أن يبقى فى منصبه بالسند أو يُعزل ، إنه سيمضى فى الغزو إلى النهاية التى كتبها الله للمجاهدين الصابرين . . . وخرج البطلُ فى جيشه راجعاً إلى مدينة الرور والبغرور ، وهما مما فتح الله به عليه قبلا ، فأعطى الناس الأعطيات ، وسمع إلى الشكاوى ، نظرَ فى أمور أهلها بما يُوجبه العدل وتقضى به المصلحة . ثم توجه من هنا إلى مدينة البيلمان ، فلم يقاتله أهلها ثقة منهم بأن جند المسلمين هم الغالبون ، فأعطاهم ابنُ القاسم الطاعةَ والأمان . ومضى إلى ثغر سرشت ، وهى مغزى أهل البصرة ، وقد اشتهر أهلها بقطع البحر ولَصِّ المسافرين ، كما كان أهل مدينة الديبل ، فطلبوا الأمان فأمنهم على أن لا يقطعوا بحراً ، ولا يهاجموا ركباً .

سبحان الله ! هؤلاء القراصنة المنتشرون على ثغور بحر الهند ، كانوا يُخيفون الطريق ، ويقطعون البحار على السفن الغادية والرائحة ، فلا يسلم منهم راكب ، ولا ينجو منهم عابر ، حتى لقد اعترف ملك ذاهر — كما قرأنا قبلا — أنه لا سلطان له عليهم ، ولا قبلَ له بهم . . . ثم يجيء اليوم شاب عربي مسلم فى السابعة عشرة أو فوقها بقليل ، فيحلُّ الأمن محل الخوف ، ويؤدب العصاة وقطّاع البحار ، فيسود الهدوء ثغور بحر الهند وسواحله ، ولا تسمع بعد اليوم نبأة واحدة عن غارة على مركب ، أو سطو على سفين . . . ؟

بقيت أمامَ بطل السند مدينة الكيرج ، ومَلكها دوهر ، وكان يعدل الملك ذاهرَ فى الشهرة والسلطان ، فأتى محمدُ بن القاسم المدينة غازياً ، حتى لا تبقى هذه المملكة شوكة فى جنوب المسلمين ، فخرج الملك دوهر فى ألوف من رجاله ، وهم على متون الأفيال الضخام ، كأنها قطع من السحاب الثقال الدواكن ، والنقع يُثارُ فى الجو كثيفاً ، حتى لو ابتغت الخيل والفيلة عَلَقاً عليه لأمكن . . . والسيوف تلمع فى عجاجات الغبار الأسود كأنها كواكب تتهاوى فى ظلمات ليل أليل . . . وقاتل

المسلمون قتالا شديداً كعهدهم فى كل معركة خاضوا غمراتها ، فانهزم العدو وهرب دوهر ملتمساً النجاة بنفسه بعد أن فنى جيشه . ولكن سيوف المسلمين لاحقته فى مهربه ، لأنها سيوف كالدهر لا ملجأ منه ولا هربٌ . فقتل دوهرُ ملكُ الكيرج كما قتل ذاهر من قبله . وهنا هزت الحماسة قلب الشاعر الراجز ، فقال يُزهى بهذا النصر المبين ، والفتح العظيم :

نحن قتلنا ذاهراً ودوهرا   والخيل تُردى منسراً فمنسرا

* * *

ومضى عام ٩٥ من الهجرة بما حمله من خير وشر . . . مضى بوفاة الحجاج بعد مرض يقال إنه ألح عليه فتساقطت نفسه أنفساً . . . ومضى بغزوة غزاها قتيبة بن مسلم حتى أمعن فى أرض بكمشاهان أو بلاد الشاش ، ومضى بفتوح بطل السند للبيلمان وسرشت والكيرج ومقتل الملك دوهر كما سبق الحديث . وطلع عام ٩٦ من الهجرة بما لا يدرى الناس ولا يعلمون . . . لأن الليالى من الزمان حبالى ، يلدن والله وحده أعلم بما يلدن . . . فاللهُ وحده يعلمُ ما فى الأرحام ، كما يعلم

ما فى مستكن الغيب ، وكما يعلم وحده ما تُخفى الصدور . . .

جاء عام ٩٦ من الهجرة ، ومضى بطل السند يقطع الشهور الأولى منه فى غزوات هنا ، وغارات هناك ، تمكيناً لقواعد العرب فى البلاد الجديدة المفتوحة ، والتى لا تزال على حداثة عهد بالإسلام . وفيما هو يمكن لمراكزه ومراكز جنده فى السند إذا بنعى الخليفة الوليد بن عبد الملك يأتيه فى ليلة من ليالى النصْف من جمادى الآخرة . فيجزع بطل السند لوفاته ، لأنه مكن له فى إمارة السند عاماً آخر بعد وفاة ابن عمه الحجاج أمير العراق . ولأن الوليد بن عبد الملك كان باراً ببنى ثقيف ، عطوفاً عليهم ، مصطنعاً لهم ، وخاصةً أهل بيت الحجاج من بنى ثقيف ، وسنعرف عما قليل أسباب هذا البر من الوليد ببيت الحجاج عامة و بالحجاج خاصة .

والحق أن وفاة الوليد بن عبد الملك كانت سبباً لأن يجزع الناس لها ، ويحزنوا من أجلها . فلقد كانت سوقُ الجهاد قائمة فى عصره ، فوق ما كانت قائمة فى عصر سلفه وأبيه عبد الملك . ولم يكن للناس شغل فى عهده غير الجهاد والفتح ، والبناء والتعمير ، حتى ليلقى الرجلُ من المسلمين أخاه فى عهده

فيسأله عن الفتوح والغزوات ، والأبنية والعمارات ، على حين كان الناس فى عهد أخيه وخلفه سليمان بن عبد الملك يتلاقون فيسأل بعضهم بعضاً عن ألوان الطعام ! لأن سليمان كان يحب ألوان المطاعم . . . والناسُ على دين ملوكهم . . . !

والحق أن جيوش المسلمين فى عهد الوليد بن عبد الملك فعلت للإسلام ما لا يقل عما فعلته جيوش الفاتحين فى عهد عمر بن الخطاب . ففى عهده علتْ كلمة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبرها وبحرها . حتى مُلئت قلوب الأمم والملوك رعباً وفزعاً . لا ينامون على قرار ، ولا يَصحون إلا على هلع . فإذا ناموا أفزعتهم الأحلام بجيوش المسلمين ، وإذا تنبهوا راعتهم جيوش الإسلام وهى تَسلُّ سيوفها ، وتكتسح إلى النصر طريقها .

وكأنما كان النصر موكلا بالمسلمين فى كل غارة اقتحموها ، فما دخلوا بلداً إلا فتحوه ، ولا توجهوا إلى قطر إلا أخذوه . وكان فى عسكرهم الصالحون والأولياء والعلماء والتابعون ، والمؤمنون بوعد الله وهو حق . فقتيبة بن مسلم يفتح بلاد الترك ، ويصل إلى تخوم الصين ، حتى يخافه ملكها فيرسل إليه الهدايا

والتحف والمال الكثير ، يسترضيه ويستعطفه مع قوته وكثرة جنوده . ومَسلمة بن عبد الملك أخو الخليفة الوليد بن عبدالملك يُمعن فى بلاد الروم ، ويجاهد بعسكر الشام حتى يبلغ القسطنطينية ، ويبنى فيها مسجداً يعمره مَن آمن بالله واليوم الآخر ، فتمتلئ قلوب الفرنج من المسلمين رعباً . . . وموسى ابن نصير يجاهد فى المغرب ، وينشر الإسلام فى كل مرحلة من مراحل الغزو ، ويغزو رجاله جزيرة ميورقة من جزائر البحر المتوسط « البحر الأبيض المتوسط » ، ويبلغ رجاله طنجة، ومنها تبدأ قصة الفتح العربى للأندلس على يد طارق بن زياد ... - ومحمد بن القاسم نفسه يصل إلى أعماق السند وأطرافها وثغورها ، فيزيل منها دول الأصنام والأوثان ، ويجعل فيها الكلمة لله الواحد الديان . . . فعند بطل السند محمد بن القاسم للجزع على موت الخليفة الوليد بن عبد الملك أسباب وأسباب . . .

فى أعقاب موت الوليد

مات الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٩٦ من الهجرة كما سلف القول ، فكانت وفاته أشد على نفس بطل السند من وفاة الحجاج ابن عمه . لقد كان الحجاج أميراً على العراق ؛ وهو لا يعدو أن يكون عاملا من عمال أمير المؤمنين ، فما دام الخليفة راضياً عن ابن القاسم فإنه مُوقن بأن عمله باق لا يتغير ، ولئن مات الحجاج دعامة ابن القاسم وسنده، إن الخليفة لفيه نعم السَّنَدُ لفتى مجاهد هو وأهله من بنى ثقيف صنائع الأمويين. ولكن السَّنَد قد مات اليوم، وجاء خليفة جديد — هو سليمان ابن عبد الملك — يكره الحجاج وأهله ومن يمت إليه بماتّة، قريبة أو بعيدة من الرحم ، ويتمنى بجدع الأنف لو خُلى بينه وبين بنى ثقيف جميعاً .

فما سر هذه الكراهة والعداوة من الخليفة سليمان بن عبدالملك، للحجاج الذى شد الرحال إلى رحاب ربه ، ولكل قائم وقاعد من أهل الحجاج ؟

لا بد للجواب عن هذا السؤال من الوقوف بعض الوقوف على حديث ولاية العهد من أيام مروان الخليفة الأموى إلى من جاء بعده على الولاء ، وهم عبد الملك ، والوليد ، وسليمان . فإن فى هذه الوقفة القصيرة مفتاح القضية التى نحن بصددها ، والتى نُكب بها بطل السند نكبة لم ير الراءون مثلها فى الجحود والنكران ونسيان أعمال الأبطال .

كان مروان بن الحكم هو الخليفة الرابع من خلفاء الأمويين ، وقد جعل ولاية العهد من بعده لابنه عبد الملك أولا ، ثم لابنه الآخر عبد العزيز من بعده . وفى سنة ٨٥ وقبيل وفاة عبد الملك بن مروان بعام واحد ، أراد هذا الخليفة أن يعزل أخاه عبد العزيز من ولاية العهد ، ويجعل مكانه ابنه الوليد بن عبد الملك ، يريد بذلك نقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وكان فى عبد الملك ميلٌ إلى المشاورة فى الأمور قبل المضى فيها ، حتى تنكشف له وجوه الرأى عما يمكن أن يمضى فيه . فاستشار فى ذلك اثنين من خاصته وأهل الحظوة لديه والقربى عنده ، وهما قبيصة بن ذؤيب ، وروحُ بن زنباع ، فنهاه قبيصة عن عمل لا تُحمد مغبته ، ولا تؤمن تهمةُ الغدر فيه ،

وأقره روْحُ بن زنباع وشجعه على خلع أخيه قائلا : لو خلعته ما انتطح فيه عنزان . . . وفيما هو من التردد بين الإقدام والإحجام إذ جاءه الخبر بوفاة أخيه عبد العزيز . . . فقال لروْح : كفانا الله يا أبا زرعة ما كنا فيه وما أجمعنا عليه .

وبهذا حل الموتُ مشكلة أقلقت بال عبد الملك فاستراح ، وتخلص — على يد ملك الموت — من أخيه ، وعهد بالخلافة إلى ولديه الوليد أولا ، وسليمانَ من بعده . وكتب بالبيعة لهما عهداً بعث به إلى الأمصار ، فبايع الناسُ كلهم إلا سعيدَ بن المسيب فامتنع ، وإن كان ذلك لا يُقدم ولا يؤخر فى القضية التى نحن بسبيلها . . . وجاء الوليد بعد أن جاءته الخلافة عقب وفاة أبيه عبد الملك ، فأراد أن يُعيد الذى عمله أبوه من قبله . وذلك بأن يعزل أخاه سليمان من ولاية العهد ، ويجعلها لولده هو عبد العزيز بن الوليد . . . وبذلك تنتقل الخلافة من الأخ إلى الابن . وجهد الوليد لذلك جهده ، وأحكم خططه ، ودعا الناسَ إلى ذلك ، فامتنع عليه أكثرهم ، ولم يجبه إلى عزل أخيه سليمان إلا الحجاج بن يوسف الثقفى أمير العراق ، والقائد الغازى قتيبة بن مسلم ، وبعض خاصته . .

ولقد دخل جماعة من الشعراء فى مسألة ولاية العهد لعبدالعزيز ابن الوليد ، فدعوا له ، ورأوه أحق من عمه سليمان ، وحرضوا الخليفة الوليد على عزل أخيه سليمان من ولاية العهد وجعلها لعبد العزيز بن الوليد . ومن هؤلاء جرير الشاعر الذى أكثر المدائح فى عبد العزيز ، ودعا الناس إلى مبايعته فقال فيه :

إلى عبد العزيز سمت عيون الرّ … عية إن تُخيِّرت الرعاءُ
إليه دعت دواعيه إذا ما … عماد الملك خرَّتْ والسماءُ
وقال أولو الحكومة من قريش … علينا البيع إذ بلغ الغِلاءُ
رأوا عبدالعزيز ولى عهـد … وما ظلموا بذاك ولا أساءوا
فزحلْفها[1] بأجمعهـا إليه … أمير المؤمنين إذا تشاءُ
فإن الناس قد مدوا إليـه … أكفهـم وقد برح الخفاء
ولو قد بايعـوك ولى عهـد … لقام القسط واعتدل البناء

على أن جريراً كان موالياً لعبد العزيز بن الوليد قبل ظهور مسألة ولاية العهد ، وقد ظفر منه بأسنى الجوائز ، وأكرم الصلات . وقد كان عبد العزيز لا يرد له مسألة ، ولا يُخيب قصداً ، حتى بدت عليه آثار عطاياه فقال فيه :

---

(١) زحلفها : ادفعها .

إلى عبد العزيز شكوتُ جهداً — من البيضاء[1] أو زمن القناد
سنين مع الجـــراد تعرّقتنا — فما تبقى السنون مع الجراد ؟
ولولا فضل نائله علينـــا — لما أحيا بنيّ ولا تـــلادى
سنشكـــر من له أثر علينـــا — كآثار الولى على العهاد

فلما مات عبد العزيز رثاه جرير بقصيدة يقول منها :

نعوا عبدالعزيز فقلت : هذا — جليلُ الرزء والحدَثُ الكبير
فبتنـــا لا نقرُّ بطعم نـــوم — ولا ليلٌ نكابده قصير . . .
وأظلمت البلاد عليه حزناً — وقلت : أفارق القمر المنير ؟؟

* * *

وأشار بعض الخاصة من ذوى التدبير على الخليفة الوليد أن لا يصل إلى عزل أخيه سليمان عن طريق القوة والسلطان من ناحيته ، ولكن عن طريق استقدام سليمانَ والرغبة إليه فى خلع نفسه من ولاية العهد ، والبيعة لابن أخيه عبد العزيز .

وقد كان فى ذلك الحل حلٌّ للمشكلة على وجه ليس فيه عنف ، ولكن فيه من إيحاء القوة ونعومة المدخل ما لا يذهب

---

(١) السنة البيضاء : هى السنة المجدبة .

ببشاعة العمل كله . فإن سمة الغدر فى العزل لا تزال تَطبع العمل ، سواءٌ أكان العزل إنزالا من صاحب السلطان ، أم نزولا من صاحب الحق . . .

وكتب الخليفة الوليدُ بن عبد الملك إلى أخيه سليمان يستقدمه ليأخذ منه إقرار النزول عن ولاية العهد ، فاعتلَّ سليمان أو أظهر العلة . . . فأراد الوليد أن يسير إليه بنفسه ، وأمر الناس بالتأهب ليسيروا معه ، للتعجيل بأخذ التنازل منه لابنه ، ولكن الموت — فى هذه المرة أيضاً — حال بين الوليد وبين أمنيته ، فلم تتم محاولتهُ لعقد ولاية العهد لابنه عبد العزيز ، ومات الوليد . . .

وانحلت مشكلة ولاية العهد هذه المرة أيضاً على يد مَلك الموت الذى يحل ما استعصى من المشكلات ، لو كان الناس يتعظون ، أو يفتحون عيونهم وآذانهم على العبر العظيمة ، والحكم البالغة التى تمر بهم . . . ولكن الله يقول ، وهو أصدق القائلين : « حكمة بالغة فما تُغنى النُّذُر » .

وذهب الوليد إلى جوار ربه بما كسب لنفسه من إثم وصالح ، وانتهى ما بينه وبين الناس فى الدنيا من صراع وخلاف ، ليبدأ

ما بين أخيه سليمانَ الخليفة الجديد ، وبين الناس من أحقاد النفوس .

لقد كان سليمانُ حاقداً على الذين وافقوا أخاه الوليد على خلعه من ولاية العهد ، وعلى رأسهم الحجاج بن يوسف الثقفى . وبات سليمان — قبل أن يلى الخلافة — لا يطيق اسم الحجاج ، ولا يطيق اسم واحد من أهله وخواصه ، بل لا يطيق اسم ثقيف كلها ، لأنها أخرجت هذا الرجل الذى يُقر خليفته على الغدر بعهد أخيه . . . وكذلك كره سليمانُ بن عبد الملك القائد الفاتح قتيبةَ بن مسلم ، لأنه ذهب مع الحجاج فيما ذهب إليه من عزل سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد ، حتى لقد خافه قتيبةُ حين صارت الخلافة إليه ، وامتنع عن المبايعة له ، وعزم على خلعه من الخلافة وتَرك طاعته ، ودعا الجند والجيوش إلى ذلك ، فسلط سليمانُ عليه — فى وسط الجموع — من قتله وقتل معه أحد عشر رجلا من إخوته وأبناء إخوته .

وكذلك كان مصرع القائد الفاتح المجاهد الذى أبلى فى الله أحسن بلاء ، وهدى الله على يديه إلى الإسلام خلقاً لا يحصيهم إلا الله ، ولو لم يعجل الموت إلى الحجاج بن يوسف

قبل تولية سليمان الخلافة لما كان مصيره إلا القتل ، كما قتل قتيبة ابن مسلم ، ولم يُرْعَ فى الله بلاؤه ، ولا فى سبيل الإسلام جهاده .

ومن هنا كان جَزِع بطل السند محمد بن القاسم على موت الخليفة الوليد ، ومن هنا كان خوفه من سليمانَ بن عبد الملك حين صارت الخلافة إليه ، ودُعى له على منابر الإسلام . . .

ولم يكن بطلُ السند مستنداً فى مخاوفه إلى غير أساس ، فهو يعلم الدور الذى قام به الحجاج لإقصاء سليمان عن الخلافة ، لولا أن الموت جاء بغير ما يَهوى الوليد وخاصته ، وهو يعلم أن سليمان لم ينس هذه الفعلة للحجاج حتى لقد كره أهلَ الحجاج جميعاً من أجلها ، وكرهَ بنى عقيل قومَ الحجاج ، بل كره ثقيفاً كلها . . . وهو يعلم — فيما جاءه من الأنباء وهو بالسند — أن ابن عمه الحجاج كان يخشى أن يموت الوليد بن عبد الملك قبله ، فيقع الحجاج فى يد سليمان بن عبد الملك . لولا أن الله عجَّل بوفاته قبل وفاة الوليد ، فمات مصوناً لم يلحقه سليمان بأذى ولا عذاب ، ولم يأمر بقتله كما قتل قتيبة ابن مسلم . . .

نعم ! لقد كان بطل السند يعلم ذلك كله من الخليفة

الجديد سليمان بن عبد الملك . ولكن ماذا يصنع ليرضى هذا القلب المنطوى على حقد وكراهة ؟ إنه لم يسئ إلى سليمان ابن عبد الملك ، ولم يُشر على الوليد بعزله من ولاية العهد وإقصائه عن طريق الخلافة ، ولم يُسهم فيما كان العراق آخذاً فيه من الفتن . . . وإنما كان بعيداً عن ذلك كله ، فكيف يَجنى غيره ويُعذب هو؟ والله يقول : « ولا تزِر وازرةٌ وِزْر أخرى » ؟

إنه مُرابط فى السند التى فتحها بحد سيفه ، منتظراً أمر الخليفة الجديد، فإنه قائد عسكرى يَعرف الطاعة ، ولا يخرج إلى عصيان ، لأنه ليس له فى السلطان رغبة ، وما به إلى الإمارة اشتهاء . . .

* * *

وجاءت أوامر الخليفة سليمان بما كان متوقعاً من مثله ، فعزل قتيبةَ بن مسلم عن إمارة العراق وخراسان ، وجعل مكانه يزيد بن المهلب ، وبذلك رده إلى إمرة خراسان بعد البعد عنها عشر سنين . . . ثم أمر يزيد بن المهلب بمعاقبة آل الحجاج

ابن يوسف الثقفى ، وكان الحجاج هو الذى عَزَلَ يَزيد عن خراسان . . . ثم جاء أمرٌ جديد بعزل بطل السند محمد بن القاسم عن إمارة السند ، وتولية يزيد بن أبى كبشة مكانه . فكان ذلك العزل أولَ ما يلقاه البطل المجاهد من أجر المجاهدين ...

البطل المعزول

نحن الآن فى العام الخامس والتسعين من الهجرة حينما جاء أمر عزل ابن القاسم عن إمارة السند بعد أن قضينا معه فى فتوحاته بضع سنين ، تبدأ من السنة التاسعة والثمانين فى خلافة الوليد بن عبد الملك . ولقد جاء يزيد بن أبى كبشة إلى السند ، لا فاتحاً ولا غازياً ، ولكنه جاء بكتاب من سليمان بتعيينه والياً على السند وعزل محمد بن القاسم . . . ولقد كان بطل السند رجلا على الرغم من حداثة سنه ، حتى فى الساعة التى يفقد فيها الرجالُ أسباب التصرف ، ويُضيعون أزمّة التدبير . . .

لقد استقبل ابن القاسم الوالى الجديد ، والأميرَ الذى عُين بدلا منه استقبال الرجل الهادئ ، والبطل الذى لا يبالى بحدث مهما اشتد ، ولا بخطب مهما جد . . . وجاء الأمير الجديد فى جلال الإمارة ، وعز السلطان ، وكان الدالة عند الخليفة سليمان . جاء فى أبهة الإمرة إلى رجل زالت الإمارة عنه ، ولكن لم يزُل فضله . . . جاء فى موكب فخم إلى فتى تعطل من

المواكب ، وتجرد من الحاشية ، وصفرتْ يداه من كل كلمة آمرة أو ناهية . . . جاء وليس بينه وبين بطل السند من أسباب الحقد ما يدعوه إلى اتخاذ موقف التجهم له والسخط عليه . إلا أنه جاء متأثراً بحقد الخليفة وكراهيته ، فأراد أن يكون خليفيًّا أكثر من الخليفة ؛ أو كما يقولون اليوم ملكيًّا أكثر من الملك . .

وكل ذنب بطل السند حتى يُعزل ويَلقى هذا الجزاء الجاحد ، أنه ابن عم الحجاج الذى كان الخليفة سليمان يحمل له فى نفسه شيئاً ، لأنه أقر الوليد على عزله من ولاية العهد وتنحيته من طريق الخلافة . ولقد مات الحجاج ، وكان يُظن أن الموت سيزيل هنا أسبابَ العداوة ، ولكن سليمان كان غاضباً على بنى عقيل قوم الحجاج كلهم ، لم يستثن منهم أحداً . . .

وتحت تأثير هذا الشعور الذى يجاهر به الخليفة سليمان لقوم الحجاج جاء الوالى الجديد إلى السند . فلنر ماذا كان موقفه من البطل المعزول .

أخذ يزيدُ بن أبى كبشة محمد بن القاسم فى عنف لايليق بمثله ، ولا تستوجبه آثاره فى البطولة العربية ، ومواقفه فى

الفتوح . . . أخذه مقيداً فى الأغلال ، مشدوداً فى الوثاق ، كما يؤخذ المجرمون بالنواصى والأقدام . . . ووكّل به وهو فى محابس القيد ، والحديد يعضّ بيديه ورجليه ، رجالا غلاظ الأكباد ، وحراساً قساة القلوب ، حملهم معه من العراق وعلى رأسهم معاوية بن المهلب لينجزوا له مهمة التكبيل والتغليل على أتم الوجوه قسوة ، وأشدها غلاظة وفظاعة .

ويروى المؤرخ ابن الأثير هنا أن محمد بن القاسم قال متمثلا :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

ولقد أحسن بطل السند فى هذا المقام التمثيل بهذا البيت ، ولكنه لم يجد سميعاً ولا مجيباً ، كما سمع جارُ أبى حنيفة النعمان خير سميع وخير مجيب من أبى حنيفة ، حينما نزلتْ بهذا الجار محنةٌ فى ظلمات ليل . . .

فقد حدثوا أن أبا حنيفة النعمان كان له جار مولع بالشراب يُحيي الليل شارباً ، ويحييه أبو حنيفة قائماً لله . وكان هذا الجار المدمن يغنى بالليل ، كلما ثمل ، هذا البيت :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فجاء العسس ليلة وأوقعوه فى الحبس ، ففقد أبو حنيفة صوته ، فعلم أن الشرطة حبسوه ، فكتب إلى الوالى ، وتكلم فى شأن العفو عنه ، فأطلق سراحه وسراح مَن أخذ فى تلك الليلة إكراماً لأبى حنيفة . وعلم الرجل بيد أبى حنيفة عنده ، فأقبل عليه يشكره ، فقال له أبو حنيفة : هل أضعناك يا فتى ؟ قال : لا والله ! ولكنك بَرَرتَ وحفظت . . .

أما سليمان بن عبد الملك فما بر ولا حفظ ، بل أضاع فتى مجاهداً جريئاً ، وبطلا فاتحاً مغواراً ، أخذ بذنب غيره ، وعُوقب بجريرة سواه ، فكان شأنه شأن القائل :

غيرى جنى وأنا المعذب فيكم فكأننى سبابة المتندّم(١)

ويروى ابن الأثير أن أهل السند بكوا على محمد بن القاسم . وحق لهم أن يبكوا . فقد فتح بلادهم على نضارة من السن ، وطراءة من الشباب ، وكان فى يده القيادة والسيادة ، والأمر والنهى ، والجاه والسطوة . فما اغتر بذلك كله ، ولا خدعه عن نفسه ولا عن ربه . لقد كان مثال المسلم الكامل : قوة فى

---

(١) سبابة المتندم : هى أصبع الرجل النادم يعضها وهى لم تجن ذنباً . .

القلب أو شدة فى البأس ، ومبالغة فى العدل ، وسعة فى البذل ، وتحرياً للحق . ومن هنا علقت به النفوس ، وأحبته القلوب ، وبكاه جيشه الغالب ، كما بكاه القوم المغلوبون .

ولم يكد يفرح يزيدُ بن أبى كبشة والى السند الجديد بمنصبه ، ولم يكد يتهنأ بما صار إليه من إمارة دولة جديدة واسعة الأطراف ، ولم يكد يرقد الليل مسروراً فى أوله حتى جاءه النذير بالأسحار . . . . فقد كان الموت راصداً له ، وكانت حبائل المنون تُحكم له سداها ولحمتها ، فمات بعد قدومه أرض السند بثمانية عشر يوماً . وأغلبُ الظن أنه لم يمت بين الضرب والطعن ميتةَ المقاتلين . . .

* * *

ولم تخفّ لوعةُ أهل السند على محمد بن القاسم ، ولا بكاؤهم عليه ، ولا قلقهم للمصير الذى ينتظره فى العراق أو فى الشام أو فى أية بقعة تكون فيها نهايته . وكأنهم قدّموا البكاء عليه انتظاراً لما كانوا يتوقعونه من أمره . . . فقد صار إلى مصير لا يتكافأ مع ما أسلف ، بل هو الجحود بعينه ، والغدر بذاته .

واحتفظ أهل السند والهند فيما احتفظوا به من تذكارات البطل العربى المغامر محمد بن القاسم بصورة له ، صوروها فى مدينة الكيرج التى فتحها سنة ٩٥ ، والتى كان يملكها الملك دَوْهر ، فكانت أدل على مكانة بطل السند والهند فى قلوب تلك البلاد .

الأسد الحبيس

كأنّ الشاعر على بن الجهم — وهو من شعراء القرن الثالث الهجرى — كان يعبر أصدق تعبير عن محمد بن القاسم الثقفى بطل السند ، وهو يقول فى قصيدته التى نظمها وهو فى السجن :

قالت حبستَ فقلت ليس بضائر ... حبسى وأىُّ مهند لا يغمد
أو ما رأيت الليث يألف غيلهُ ... كبراً وأوباش السباع تردد ُ ؟
والشمس لولا أنهـــا محجوبة ... عن ناظريك لما أضاء الفرقد
والحبس ما لم تَغْشَهُ لدنيّة ... شنعاءَ نعم المنزل المتورد
بيت يجـــدد للكريم كرامة ... ويُزار فيه ولا يزور ، ويحفد.

ولعلك أدركت — أيها القارئ الكريم أن بطل السند قد اقتيد فى الأغلال ليحبس ، ويضيق عليه فى حريته كما يضيقُ على المجرمين من أصحاب الدنايا الشنعاء .

ولقد بلغنا فى الحديث عن بطل السند مبلغَ القبض عليه وتوكيل معاوية بن المهلب به مع جماعة من أشداء الحراس

يسوقونه إلى العراق ، و يُسلمونه إلى رجل شديد العداوة للحجاج ، كثير الموجدة عليه ، لأمر سنذكره فيما يجيء من القول ، ذلك الرجل هو صالح بن عبد الرحمن .

ولم يكن صالح بن عبد الرحمن والياً على العراق ، ولا نائباً لواليه حتى يُسلمه حراس بطل السند إليه . ولم يكن صالح حَرسيًّا ولا شرطيًّا ، ولم يك قواماً على سجون العراق يتولى أمرها ويدير شئونها . ولكنه كان عامل الخراج على العراق لسليمان ابن عبد الملك . فلماذا اختاره سليمان بن عبد الملك لمهمة القيام على محمد بن القاسم فى سجنه ؟ وما العلاقة بين رجل يقوم على شئون الخراج ، ورجل عُزل عن قيادة جيوش السند ، وسيق مكبلا فى أثقال الحديد ، لا يدرى إلى أين يساق ، وماذا يراد به ؟

لقد شهد بطل السند مدينة واسط وهو فى طفولته المتأخرة وشبابه المبكر . ورأى فيها بيوتَ أهله من بنى عقيل وهى تتدانى وتتراءى نارها[1] فى حى خاص بهم ، يمتاز من بقية أحياء المدينة الناشئة النامية بجلال المظهر ، ونضرة النعيم ، و بسطة

---

(١) أى يتقارب بعضها من بعض .

العيش ، وعرض الجاه . واليوم يُساق إلى واسط ، تلك الحاضرة الجميلة التى بناها ابن عمه الحجاج أمير العراق ، فيراها وقد تغيرت معالمها فى ناظريه ، وتنكرت له ؛ وعلتها كآبة موحشة بعد أن كان البشر يبدو من كل ثنية فيها ، وكل طريق من طرقاتها ، ومنعطف من منعطفاتها .

لقد كانت واسط بالأمس غير البعيد تنفسح له رحابها ، وتنبسط له مضايقها ، واليوم يدخلها — أو يُدخله الحراس إليها — فتضيق فى عينيه ضيقاً لا يقوى عليه ، ويضيقُ صدره بها ضيقاً لم يعهده فيها من قبل . ولكن مدينة واسط فى الحق لم تتغير ، وإنما تغيرت الحالُ بمحمد بن القاسم ، فرآها كئيبة فى عينيه وهى فى الواقع غير ذلك ، ورآها موحشة فى ناظريه وهى ليست هنالك . . . ولو أنه عاد إليها فى غير هذه الحال التى أعيد بها لرآها كما كانت ، وأنضر مما كانت : قلبَ العراق النابض ، ومركزَ الحركة فيه ، ومجتمعَ الإدارة والتنظيم والتوجيه ، ومدينة الحجاج التى بنى فيها قصراً للإمارة ، وأنفق عليه ألوف الألوف من الدراهم .

وأقام بطل السند — أو أريد له أن يقيم — فى واسط سجيناً

حبيساً ، بعد أن كان له فى بلاد السند الأمر والنهى ، والحول والطول ، والتصرف فى الأمور كما يريد ، لا يعارضه معارض ، ولا يناقضه مناقض .

ولقد أنطق الحبسُ الأليم شاعرية البطل المغوار ، وفى بنى عقيل فصاحة وشاعرية كانت تجلوهما المواقف الجسام . ألم يكن الحجاج من خطباء العرب الذين كانت تسعى إليهم المنابر ، وتهتز أعوادها فتهتز منها قلوب السامعين ؟ ألم يكن يَرْقى المنابر ، فيعظ وعظ العلماء وينزل عنها فيفتاك فتك الجبارين ، كما قال عنه الحسن البصرى ؟ ألم تَحضرهُ الشاعرية وهو على فراش الموت ، فى آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فنظم أبياتاً فى التوبة والاستغفار ، وهو فى اللحظة التى تضيع فيها بدائه الرجال ؟

نعم ! لقد نطق بطل السند وفتى ثقيف وهو فى سجنه بواسط شعراً يقول فيه .

فلئن ثويتُ بواسط وبأرضها رَهن الحديد مكبلا مغلولا
فلرُبَّ قينة فارس قد رُعتها ولربِّ قِرْنٍ قد تَركتُ قتيلا

* * *

لقد أحسن بطل السند الظن بالخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك حين تجب إساءة الظنون . ولكن الفتى الطيب القلب معذور ومعذور . فما أذنب ، ولا اقترب جرماً ، ولا اكتسب إثماً . وكل ذنبه أنه ابن عم الحجاج الذى كان عدو سليمان المبين .

ولو أن ابن القاسم رأى من وراء الغيث هذا الحبس الذى كان ينتظره حين جاءه نبأ وفاة الخليفة الوليد بن عبد الملك وتولية أخيه سليمان — لو أنه رأى ذلك المصير وقدَّره ، ما أسلم نفسه ليزيد بن أبى كبشة والى السند الجديد ، ولكان ركب إلى الفرار ألف سبيل وسبيل . ويقول هو فى ذلك شعراً منه :

ولو كنتُ أجمعت الفرار لوطِّئت إناث أعِدَّت للوغى وذكور
وما دخلت خيل السكاسك أرضنا ولا كان من علك علىَّ أمير
وما كنت للعبد المزونى تابعاً فيالك دهر بالكرام عثورُ !

وخيلُ السكاسك هى خيل الوالى الجديد وأمير السند يزيد بن أبى كبشة ، الذى ينتمى إلى قبيلة السكاسك من كندة ، وهم من العرب اليمانية .

نعم ! كان يستطيع بطل السند الفرار لو أراده ، ولكنه – كما رأيناه فى كل مواقعه – جندى لا يعرف الهرب ، ولا يلتمس الفرار .

لقد كان مقداماً فى كل مراحل حياته القصيرة قِصر أعمار الورود ، فلماذا يفر فرار الجبان وهو واثق أنه برىء ؟

إن الأبطال يُقدمون على الموت فى ساعة يتأخر فيها سرج الجبان ، ففيم الغضاضة إذن من السجن ولو كان طريقاً إلى الموت ؟

ثأر قديم

قد يكون للخليفة سليمان بن عبد الملك بعض العذر فى نقمته على قوم الحجاج جميعاً لموقفه من ولايته للعهد ، وإغرائه الوليد بن عبد الملك بعزله من تلك الولاية ليفسح الطريق لولده عبد العزيز . ولو أنه ليس من العدل أن يؤخذ الأبرياء بذنب المسىء .

لقد رَوى ابن الأثير أن سليمان بن عبد الملك استعمل يزيد بن المهلب على العراق ، وَجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج ، وأمره بقتل بنى عَقيل وَبسط العذاب عليهم — وهم أهل الحجاج ، فكان يعذبهم ويلى عذابهم عبد الملك ابن المهلب .

والحجاج دائماً هو مركز الثارات حين يَغضب الأمويون وأتباعهم وعمالهم على بنى عقيل .

لقد وَتر الحجاجُ الخليفة سليمان بن عبد الملك حين كان يدبر الأمور سرًّا وعلانية لخلعه من ولاية العهد . وهى ترة لم

يطفئها موت الحجاج ، فظلت تتلظى على أهله وقومه . فما هو شأن صالح بن عبد الرحمن بأهل الحجاج حتى يعذبهم هذا العذاب حين صار إليه أمر الخراج فى أول عهد سليمان ؟

إن هناك ثأراً دفيناً بين الحجاج و بين صالح بن عبد الرحمن ، والعرب قوم لا ينسون الترّات . وترجع أصول هذا الثأر إلى أوائل عهد الحجاج بإمارة العراق .

لقد كانت حرب الخوارج على أشدها بالعراق ، حتى لقد هانت على هؤلاء القوم أرواحهم فى سبيل فكرتهم التى نادوا بها ، وقاموا من أجلها . وحتى لم يشهد التاريخ صلابة واستمساكاً بالموت فى سبيل الرأى كما شهده عند الخوارج . ولقد أقضّ الخوارجُ مضاجع الأمويين ، فلم تذق عيونهم طعم النوم من شدة ما رأوه منهم .

وحمل الحجاجُ الناسَ على حرب الخوارج حملا ، ووكّل بمناهضتهم المهلب بن أبى صفرة ، وهو رجل محارب قوى الشكيمة ، ماضى العزيمة ، سديد الرأى ، حَسن الاحتيال فى الأمر ، يراوغ فى الحرب ، ويَحذرُ البغتات ، ويديم المراقبة ،

وكان لا يؤتى للحجاج بخارجى إلا قتله ، حتى لقد قتل منهم بيديه خلقاً كثيراً . . .

وكان لصالح بن عبد الرحمن أخٌ اسمه آدم ، جرفته موجةُ الخوارج ، فسار فى تيارهم ، ورأى رأيهم بعد أن فتن بفصاحة دعاتهم ، وأخذ بشدة بلائهم . فلما وقع آدم فى يد الحجاج لقى منه المصير الذى كان يلقاه كل خارجى ، وهو القتل .

وكان حزن صالح بن عبد الرحمن على أخيه آدم شديداً ، ووجده عليه عظيما ، وموجدته على الحجاج مما لا تذهب الأيام بجدته . فهى كامنة فى الصدور ، مستكنة فى الضمير ، حتى يَحين الأوان للانتقام .

ومات الحجاج قبيل وفاة الوليد بن عبد الملك وفى ظل حمايته ، فلم يدرك الموتورون منه ثأراً ، ولم ينالوا ترة ، فتحول السخط على الحجاج إلى السخط على قومه وأهله ، وانتقل الحساب من قائمة أمير العراق الحجاج إلى قوائم بنى عقيل ...

* * *

ولم يكتف صالح بن عبد الرحمن بالثأر القديم بين الحجاج وبين أخيه القتيل آدم بن عبد الرحمن ليتخذه سبباً لتعذيب

محمد بن القاسم الثقفى بطل السند وابن عم الحجاج . إن بطل السند الآن حبيس فى سجن ضيق مظلم من سجون واسط مع جماعة من بنى عقيل — قوم الحجاج — يُساموَن العذاب كلما أجنَّهم ليل، أو أشرق عليهم من خلال قضبان السجن وَميض من صباح . فلماذا لا يُقتل بطل السند على يد صالح بن عبد الرحمن، كما قتلَ الحجاجُ بالأمس أخاه آدم بن عبدالرحمن؟

ولكن بطل السند لم يقترف ذنباً يستحق عليه القتل َبله السجن ، فما هو الذنب الذى يلصق به ، وما هى التهمة التى تُفترى عليه ، حتى يكون للقتل مستوجباً ، وللحكم عليه بالموت مستأهلا ؟

هنا ستنهض أحقادُ الصدور لتشفى غليلها على حساب الأبرياء . . .

فرية على الأبرياء

كان آخر عهدنا بالأميرة سيتا ابنة الملك ذاهر أنها حُملت أسيرة إلى دمشق عاصمة الأمويين ، بعد أن استراب البطلُ محمد بن القاسم من أمرها ، ولاحظ عليها اتصالات خفية مع جماعة من أمراء السند المخلوعين المغلوبين على أمرهم ، وخشي أن تكون الأميرة الشرقية السمراء قد خامرت مع قومها على العرب لتثأر منهم لأبيها المقتول ، ولبلادها المغلوبة ، ولأسرتها المنكوبة .

ولقد كانت الأميرة سيتا تُظهر للأمير العربي الشاب محمد بن القاسم قبل ترحيلها إلى دمشق ما تحببت به إليه ، حتى شغفته حبًّا ، وكان يبدى لها من الاهتمام بها والعطف عليها والمودة لها ما شهدت به سماء السند وأرضها .

والحق أن ابنة الملك المقتول لم تتظاهر بحبها للأمير العربي بطل السند إلا لتتخذ من ذلك الحب الظاهر وسيلة إلى غرضها ، وسبباً لبلوغ أهدافها . فكانت تساره بالإشارة ، وتُخافيه بلحن

العبارة ، فى لكنة سندية ، ولوثة غير عربية ، لعلها تتلقف من بين شفتيه الكتومين خبراً يفيدُ المخامرين من قومها ، وينفعُ المتآمرين خفية من بنى جنسها .

وحاولت سيتا أن تُخفى شأنها قدر ما وسعها الإخفاء، حتى لا ينفضح أمرها ، أو ينكشف سرها ، فتبوء خطتها بالخيبة ، وتنقلب أمورها إلى أسوأ منقلب .

ولكن بصيرة القائد الشاب كانت أهدى من الشمس حين تجدُ فيها الأبصار هداية إلى معالم الطريق ، فأدرك من نظراتها ما تخفى سريرتها ، ورأى فى عينيها دليلا على خبايا فؤادها ، ورابه من أمرها أنها كانت تخرج فى الليالى المتشحة بالسواد ، تطأ الثرى فى رفق ، وتتسلل بين الشجر فى حذر ، وتصلُ الخطى فى نفس مكتوم ، ثم تعود بعد ذلك كأنما انزاح عن صدرها هم ثقيل . . .

وذات ليلة خرجت سيتا كعادتها ، وكان ابن القاسم قد بث لها من الأرصاد من يتابعون خطوها ، ويقفون على جلية أمرها . فسُمِّرت عيونهم المتفتحة على شبحها المجال بسواد الليل ، وظلوا خلفها لا تنحرف عنها أبصارهم ، ولا يحيد عن مسيرها

مسيرهم ، إلى أن رأوها تلاقى ثلاثة من الرجال لقاء خفيفاً سريعاً، امتدت فيه يدها بشيء وامتدت فيه يد أحدهم بتلقف ذلك الشيء على حذر ، ثم مضى الثلاثة ممعنين فى سير حثيث يدنو من الجرى ، وعادت الفتاة أدراجها ، وهى موقنة أن أحداً غير الليل والثلاثة الشخوص لم يشهدها . وأنها آمنة فى كنف الظلام الحالك، من أن تأخذها عيون المتطلعين ، وأبصار المتجسسين ...

وعاد عيون ابن القاسم ينبئونه بما رأوا ، ويخبرونه بأمر الفتاة المريبة التى تتخذ من ملاءة الليل الأسود ستراً لخططها السود . . . واستدعاها ابن القاسم ، وأخذ معها فى الحديث وأعطى ، وأبدأ وأعاد ، إلى أن استيقن أن الأميرة ممالئة ، وأن العطف الذى أبداه نحوها كان فى غير موضع ، وأن الحب الذى كانت تتظاهر به كان ستراً لأخبث الأهداف ، وأن رغبة الثأر لأبيها تتحرق فى قلبها ، فود لو أن أدب الحرب فى الإسلام كان يُجيز قتل امرأة ! إذن لتخلص منها بأيسر طريق كما يُتخلص من الجواسيس . ولكنه رأى أن يبعث بها أسيرة إلى عاصمة الخلافة فى دمشق ، لعل الله يُحدث بعد ذلك أمراً ...

* * *

ومضت بضعة أعوام على الأميرة الأسيرة سيتا، قضتها في دمشق وحيدة بعيدة عن أرضها ، ولكنها لم تكن غير واحدة من هؤلاء الموالى والجوارى الذين كان الولاة والعمال يُهدونهم إلى بلاط الخليفة . ولقد كانت سيتا أول أمرها مولاةً فى بلاط الوليد ، ثم أهداها إلى واحد من أسرته . واختلفت عليها فى خلال بضع السنوات من الحوادث ما لا شأن لنا به ، مما لا يتصل بتاريخ ابن القاسم فى قليل أو كثير .

وما يهمنا هنا أن نعرض من تاريخ حياتها فى دمشق ما لا يهتم به التاريخ . إلا أننا نذكر أنها كانت وصيفة فى قصور الأمراء من بنى أمية ، لعلها كانت تحسن من أمور الخدمة فى القصور ما تلقته فى قصور أبيها الملك ذاهر ، أو لعل نشأتها فى بيت ملك كانت تُعينها على إجادة التنشئة فى بيوت الأمراء ، أو لعل من الكرامة والإكرام لابنة ملك مغلوب مقتول أن لا تعامل معاملة الرقيق .

ولقد بلغ آخر المطاف بها فى خدمة القصور لرجال بنى أمية أن خدمت فى دار لرجل من رجال سليمان بن عبد الملك الذين اتصلوا به قبل أن تصير إليه الخلافة ، فلما استقرت له

دعائمها بعد مسألة ولاية العهد أدناه إليه ، ورفع مكانه عنده ، وأناله الحظوة لديه . ولعل سيتا الأميرة السندية لم تكن فى دار أحد من أمراء بنى أمية أسعد حالا مما كانت فى دار الشيخ صفوان . . . .

* * *

وقضى صالح بن عبد الرحمن فى مدينة واسط شهوراً يضع فيها أصول الخراج للدولة الأموية على أساس يرضى عنه سليمان بعد أن بلغت النفقات فى عهد الوليد بن عبد الملك حداً كادت تنوء به موارد الدولة ، ولعل صالحاً لم ينشغل بأمر الخراج أكثر مما انشغل بأمر بنى عقيل — وعلى رأسهم محمد بن القاسم بطل السند — الذين وكل به سليمان بن عبد الملك أمر تعذيبهم والقيامة عليهم فى سجنهم فى مدينة واسط . . . لقد كان يفكر فى وسيلة يخلُص بها جملة من بنى عقيل قوم الحجاج الذى قتل أخاه آدم فى فتن الخوارج ، وأضحى بذلك واتراً له ، وركز أطراف حقده على بنى عقيل فى البطل الشاب محمد بن القاسم . فماذا يصنع ليتخلص منه ومن بقية قومه بالقتل الذريع ؟

لقد كان لبطل السند فى قلوب المسلمين محبة لا ينزعها

نازع ، فأحبه أهل السند حبًّا يدنو من تقديس آلهتهم الأقدمين ، وصنعوا له صورة فى مدينة الكيرج ، كما يصنع الناس بالتماثيل حين يقيمونها للأبطال وعظماء الرجال تخليداً لذكرهم . وأحبه الجنود المقاتلون من رجاله حبًّا امتزج بالطاعة التامة كما امتزج بدمائهم . وبكاه هؤلاء وهؤلاء حين جاءه الأمر مع والى السند الجديد بالعزل ، وحين قيده هذا الوالى وساقه فى حرس شديد إلى العراق لينظر فى أمره .

وفوق هذا أحبه المسلمون فى العراق والشام ، وأخذتهم من أنباء شجاعته وبسالته وبطولته ما جعلهم يتحدثون باسمه ، كما كان يتحدث الأقدمون بأبطال الأساطير . . .

وما سجلت السنوات الست التى قضاها ابن القاسم فى السند فاتحاً غازياً مجاهداً فى سبيل الله ، ضارباً بسيف الله أعناق الكفر ، ومحطماً رءوس الشرك — ما سجلت عليه عيباً واحداً ، أو نقيصة واحدة يؤخذ بها ، ويستحق العقاب من أجلها .

لقد كان أميناً على أموال المسلمين وأرواحهم ، حريصاً على أعراضهم ، كما كان حريصاً على أعراض أهل البلاد المفتوحة فما استحل فيها حرمة ، ولا هتك ستراً ، ولا أباح معصية .

وكان فى سلوكه نفسه ، وفى سيرته الشخصية ما كان أحسن المثل لقومه العرب ، حتى اطمأن أهل السند إلى المسلمين ، وألقوا إليهم السلام ، ورضوا بالإقامة فى كنفهم ، لأنهم رأوا فيهم من العدل ما لم يجدوه ، ودخلوا فى الإسلام راضين لم يُرغمهم سيف ، ولم يُكرههم عليه عسف . وحَسُن إسلامهم إلى يومنا هذا ، فكسب بهم دين البيّنة أرضاً واسعة ، وقلوباً عامرة ، وعدداً كاثراً إذا عُد عليه الحصى يتخلف . . .

فماذا يصنع صالح بن عبد الرحمن إذن ليأخذ الوِتْر من الحجاج الذى مات وشبع موتاً ؟ ماذا يصنع ليثأر لمقتل أخيه آدم بن عبد الرحمن من شاب برىء ، ذنبه أنه قريب للحجاج فقط ؟ وهل كانت القرابة غرماً يَحتمل فيه الأقارب المغارم دون أن يكون لهم وزر ، أو يقع منهم إصر ؟ إن الله يقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه » . فكيف يصح فى مشارع العقل وموارد الطبع أن يُلزَم إنسان برىء طائرَ غيره ، ويتحمل تبعات سواه ؟

ألا يصح لبطل السند حينئذ أن يتمثل بقول الشاعر الجاهلى :

لم أكن من جناتها — علم الله — وإنى بحرّها اليوم صالى !

سمع صالح بن عبد الرحمن — وهو فى قصر الخراج بمدينة واسط — أن فى دمشق فتاة من السند تتسم بسمات الإمارة ، وتنتسب إلى الملوك من السند . فأبوها ذاهر الذى قتله جيش محمد بن القاسم فى فتح مهران . فلماذا لا تكون هذه الفتاة بداية الخيط الذى يصل به صالح إلى مأربه من قتل بطل السند محمد بن القاسم : ابن عم الحجاج ؟

خيوط المؤامرة

وَفد صالح بن عبد الرحمن على عاصمة الأمويين ليعرض على أنظار الخليفة سليمان بن عبد الملك جرائد الخراج فى العراق بعد أن ولاه الخليفة أمره . والحق أنه كان يُعد فى حقيبته لهذه الرحلة التى جاز بها العراق إلى الشام شيئاً ، ويُبيت أمراً لبطل السند محمد بن القاسم .

وكان رَكبُ صالح إلى الشام فيه من الحرس والجند ما يليق بمقام عامل الخراج ، وهو الرجل الذى يجمع للدولة مالها ، ويلم لها أطراف ثروتها ، مما يعينها على التعمير والإنشاء والغزو ، والنفقة على الجيوش ، ومظاهر الترف التى أخذت بعد ذلك تزداد فى العصر العباسى .

وصالح بن عبد الرحمن هذا رجل من طراز عجيب ، فهو أذنٌ يتسمع الأخبار ويتلقفها من أى فم ، ويأخذها عن أية شفة ، ويتقرب إلى الخلافة بهذه الصفة التى أدنتْ محله منها .

وأخذت المطايا تخب وتضع فى طريقها إلى حاضرة بنى أمية ، وتقف فى مراحل الطريق ، تتزود بالماء والطعام ، وترتاح من مشقة الطريق ، وطول الرحلة .

وكان صالح يتبسط إلى حراسه فى الحديث ، لعلهم يفضون إليه بما يود أن يعرف من صغير الشئون وكبيرها ، وتافهها وجليلها . وفى يوم من أيام الرحلة جاءت النوبة على حارس من حراسه يقص على الركب وصاحبه أغربَ ما شاهده فى حياته . فذكر الحارس أنه كان من جنود الغزوة التى بَعثَ بها الحجاجُ إلى ثغر السند ، وأنه رأى فى هذه البلاد التى تركب الأفيال وتحارب عليها ، غرائب لا ينقضى منها عجب .

وكأنما سَقط صالح بن عبد الرحمن على ضالة كان ينشدها ، فلعل الرجل تخرج من بين شفتيه كلمة تعينه على إنجاح المؤامرة التى أضناه التفكير فى حَوْك خيوطها . وأقبل صالح بجملته على الحارس يصغى إليه ، وكأن كل عضو من أعضاء جسمه أذن تتسمع . . .

وتوقعَ صالح أن يُذكر محمد ابن القاسم بمايتحرق إلى شفاء غلته منه ، فما وجد إلا لسانَ صدق ، وشهادة خير .

قال له صالح : وكيف كانت سيرة ابن القاسم بينكم ، وخطته فيكم ؟ فأجاب الرجل :

ـ كان والله المثل الأعلى فى سيرته وخطته ، حتى لقد ودّ كل واحد من جنده أن يكون مصبوباً على قالبه . فهو يعطف على الصغير منا ، ويوقر الكبير فينا ، ويأخذ نفسه فى السلوك بما يأخذ به المسلم المتصوّن نفسه ، فلا جورَ ولا طمع ، ولا صَلَف ولا غرور ، ولا فسق ولا فجور .

ـ ولكنه ابن عم الحجاج الذى فجر فى العراق ، وأطال الله الطَّول له إلى أن أخذه وأراح العباد منه . ثم جاء الخليفة سليمان ، وهو أحق الناس بالخلافة علينا ، والولاية فينا ، حتى قال الناس فيه هذا القول المأثور : سليمان مفتاح الخير ، ذهب عنهم الحجاج ، وولى سليمان . أفلا كان فيه بعض ما كان فى ابن عمه من فجور ؟

ـ والله يا ابن عبد الرحمن ما عهدنا على الرجل من سوء ، ولا عرفنا فيه مذمة نأخذها عليه ، ونعيبها منه . وليس بحتم أن يكون الرجل كابن عمه . فقد يختلف الأخوان فى الطبع والأصل واحد ، والأب واحد ، والأم واحدة . وقد يلد الحُرّان غير نجيب ... وقد

يخرج الخبث من الفضة الخالصة ، كما قد يخرجُ الخبيث من الطيب . وقد يكون للحجاج من العيوب ما يؤاخذه عليها المؤاخذ، بعد أن سفك من دماء المسلمين ما سفك ، وأزهق من الأرواح ما أزهق . وهذه خطبته بالكوفة حين دخلها فخطب الناس بغتة ، وهددهم وأوعدهم ، حتى خافوه مخافة شديدة ، وكأن الله ابتلى أهل العراق بهذا الرجل ، يحكم فيهم بحكم الجاهلية ، لا يقبل من محسنهم ، ولا يتجاوز عن مسيئهم . فقل فى الحجاج ما شئت ! أما ابن عمه محمد بن القاسم فلم يكن والله فى شىء من ذلك كله . . . لقد كنا نخشى أن تغره الإمارة ، وحداثة السن ، ومكان القيادة ، ووفرة المال ، وملازمة التوفيق ، فوالله ما اغتر ، ولا تكبر ، ولا زادته الانتصارات إلا تواضعاً ، كالشمس تعلو فى كبد السماء ، ويدنو شعاعها وضوؤها .

— كأنك تحدثنى عن ابن القاسم بينكم ، فهلا حدثتنى عنه مع أهل السند التى فتحها ؟

— إن الحديث عن ابن القاسم يشرّفه من حيث نظرت إليه ، كالبدر من حيث التفت إليه يهدى إلى العين نوراً ساطعاً ، وضياء لامعاً... لقد كان والله كريماً مع سيتا كرماً لا يليق بما صنعت؟

ـ ومن سيتا هذه التى أكرمها الغلام الثانى من غلمان بنى ثقيف ؟

ـ أتسألنى عن سيتا التى سار بذكرها الركبان ؟ إنها أميرة من أميرات السند ، وقف أبوها فى وجه المسلمين الفاتحين فقتلته جيوش محمد بن القاسم . وقد رق البطل الشاب لما آلت إليه أمورها بعد مقتل والدها . فأكرمها ورعاها صوناً لبنات الملوك أن تبتذل حياتهن . ولكنها لم تكن أهلا لرعاية البطل الفاتح وعنايته ، وكان أيسر جزائها على نية الممالأة مع جماعة من قومها أن يقطع رأسها . . فقد كانت تتجسس على محمد بن القاسم وهى فى كنف رعايته ، وتتعقب أخباره وأخبار خططه ، وهو مطمئن غير مضمر سوء ظن ، إلى أن انكشف له من أمرها ما كانت تستره وتبالغ فى كتمانه . فأرسلها أسيرة إلى العراق ، حيث بعث بها أمير العراق إلى بلاط دمشق . وهناك تنقلت بها المصائر من قصر إلى قصر ، ومن دار إلى دار . حتى انتهت آخر الأمر إلى دار الشيخ صفوان ، صفى الخليفة سليمان بن عبد الملك من قبل أن تصير إليه الخلافة .

* * *

كان صالح بن عبد الرحمن يصغى إلى هذا القسم من حديث الحارس الذى فى ركبه إصغاء بالغاً ، حتى كأنه كان يلتهم كل كلمة منه ، ثم هز رأسه هزة الذى وجد حلاً ، أو انتهى إلى قرار ، وقال :

— وهى الآن فى دار الشيخ صفوان . . .

فى دار صفوان

بلغ ركبُ صالح بن عبد الرحمن عامل خراج بنى أمية على العراق أرباض عاصمة الأمويين ، وقد بدت على مرمى النظر شواهق الأبنية والمصانع التى جدّ بنو أمية فى تشييدها ، وخاصة الخليفة البنّـاء المعمر الوليد بن عبد الملك ، الذى كان الناس يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن الأبنية والعمارات ، كما كانوا يسألون فى عهد الخليفة التقى الورع عمر بن عبد العزيز أىّ وردٍ قرءوا ، وكم حفظوا من القرآن ، وكم قاموا من الشهر ؟

وبدت للركب الذى كان حديث عهد بدمشق فى عصر الوليد قبة الرصاص بالجامع الأموى التى وصفها الرحالة ابن جبير بعد ذلك بزمان طويل فقال : إنها من أعظم ما شاهده من مناظر الدنيا الغريبة ، وهيا كلها الهائلة البنيان . وعجب ابن جبير فوق ذلك من الحجارة التى فى جدر المسجد ، والتى يزن كل واحد منها قناطير مقنطرة ، ولا تنقلها الفيلة فضلا عن غيرها (فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو ، وكيف

تمكنت القدرة البشرية لذلك ، فسبحان من ألهم عباده إلى هذه الصنائع العجيبة) .

ولو أن ركب صالح بن عبدالرحمن تأخر به الزمان أربعة قرون أو تزيد قليلا . لما سمع فى وصف الجامع الأموى بدمشق — الذى بناه الوليد بن عبد الملك — أجمل ولا أدق مما وصفه به الشاعر العربى الفارسى أسامة بن منقذ الكنانى حيث قال :

وكأن جامعها البديع بناؤه ... ملك يمير من المساجد جحفلا
ذو قبة رُفعت فضاهت قنة ... ومنابر بنيت فحالت معقلا
تبدو الأهلة فى أعاليها كما ... يبدو الهلال تعاليا وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً ... يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقوام بين شكوله ... فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بجص فانبرى ... بالفص يعلو والنضار مجللا
فإذا تذرّ الشمس فيه تخاله ... يلقاً[1] تألق . أوحريقاً مشعلا
فكأنما محرابه من سندس ... أو لؤلؤ وزمرد قد فصّلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت ... منه للحظك عبقريّاً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما ... تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضة ... سالت فظنوها معيناً سلسلا

(١) اليلق : البياض الشديد .

وتفرق ركب صالح فى دمشق ، ومضى كل على وجهه حتى يقضى صالح المهمة التى جاء من أجلها . وهم لا يعلمون أكثر من أنه جاء لشأن من شئون الخراج الذى ولى أمره ، ولا يدرون شيئاً مما يدور فى باله حول محمد بن القاسم ، وما يُعده له فى حقيبته . . .

ومضى صالح بن عبد الرحمن إلى دار الشيخ صفوان ، وهو صديق قديم له ، وقد التقيا فى حب الخليفة سليمان بن عبد الملك قبل أن تصير الأمور إليه . فسلم كل منهما على صاحبه ، ورحب المضيف بضيفه ، وفرح لرؤية صديق قديم ، وأخذ كل واحد منهما يسأل صاحبه عن طائفة من المسائل ، مما يخوض الصحاب القدامى فيها حين يلتقون ويتدانى بعيدهم .

وأراد الضيف صالح بن عبد الرحمن أن يستطلع أمر الوصيفة السندية سيتا التى بلغه فى آخر مراحل رحلته أنها نازلة بدار صفوان التى هو الآن فى رحابها . . .

ولا يعدم المرء ذو الحاجة أن يجد سبلا كثيرة يستطلع بها طلع الشىء الذى يريده ، فصالح بن عبد الرحمن عامل على خراج البصرة ، والبصرة ثغر لا تنقطع السفن بينه وبين ثغور السند

التى فتح الله بها على المسلمين . فلم لا يأخذ الحديث بعضه برقاب بعض، حتى يصل إلى قصة فتح السند من أولها، أو إلى قصة محمد بن القاسم فيها ، وإلى قصة العذاب والسجن الذى وكل به صالح بن عبد الرحمن نفسه ؟

وكان من طبائع الأشياء ومساق الحديث أن تُذكر الأميرة سيتا فى مجال الحديث عن بلادها ، وأبيها الملك ذاهر المقتول ، وفتح المسلمين لهذه الأرض الشاسعة .

واستدعى الشيخ صفوان الوصيفة السندية سيتا ليراها الضيف الوافد من العراق صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج على البصرة . فدخلت وقد تغيرت ثيابها ، وتغيرت لكنتها السندية التى كانت فى لسانها منذ بضع سنوات ، فهى تجيد الكلام فى لسان عربى مبين . ولو أن صالح بن عبد الرحمن قد رآها يوم مقتل والدها ورآها اليوم لما أدرك تغيراً فى سحنتها إلا بمقدار ما يُغيره مَرُّ بضع سنوات من عمر الإنسان . . . فهى لا تزال سمراء ، ولا تزال عيناها تفتحان وتغمضان على أعمق الأسرار . . . وما زال صالح يثير فيها بالأسئلة كوامن حزن قديم عميق . فتارة يذكرها — أو يدعوها إلى تذكر — ماضيها فى قصر والدها الملك ذاهر حيث

نشأت وعلى وجهها نضرة النعيم ، وحيث كان الجوارى فى قصر ذاهر يقبِّلن مواطئ أقدامها ، وحيث كانت الدنيا كلها فى يديها ، فلها ما تمنت ، وعلى الأقدار أن تجيب . . .

وتارة يذكِّرها — أو يحملها على أن تذكر — أحاديث الفتح ، حيث لقى أبوها مصرعه على يد رجل مسلم وهو يدافع عن حماه .

وتارة يذكِّرها بالأسر الذى وقعت فيه ، والمصير الذى صارت إليه منذ أن بعث بها محمد بن القاسم أسيرة إلى بلاط الأمويين . وسألها صالح بن عبد الرحمن عما بقى لها فى بلاد السند بعد أن قتل أبوها وضاع ملكه ، وتهاوى التاج من فوق رأسه ؟ فأجابت :

— لقد خطبنى فى السند — قبل أحداث الفتح العربى بقليل — أمير من أشرف أمراء السند نسباً ، وأكرمهم محتداً ، وكنت أحلم بالسعادة فى قربه ، وأتعجل دورة الزمان لأصير ملك يديه . ودار الزمن دورة قصيرة من دوراته ، ولكنها كانت محملة بما لم يكن فى حسباننا ، فمات أبى الملك ذاهر قتيلا فى معركة الفتح العربى وزال الملك الذى كنا نمرح فى أفيائه ، وراح الحبيب الذى كنت أرجو وصاله . . . ولا أدرى أين راح . ولا أيان دارت به

عجلة الأيام ! وهأنذا الآن هنا بعيدة عن الوطن المنكوب ، فلا أهل ولا مال ولا حبيب . فمن يردنى إلى أرضى التى افتقدتها ، وإلى أهلى الذين ضربت بينى وبينهم الأيام بالأسداد والأسوار واللجج ؟

— إن صديقى صفوان قد تؤلمه شكواك كما آلمتنى ، ولعلى أنا الذى هيجت لك الجرح الذى يدمى قلبك ، ولعلها أول مرة يستمع فيها صفوان إلى مثل هذا الحديث الموجع . . . وأنا ضمين لك عند هذا الشيخ ذى المروءة أن يعتقك ويعين على ردك سالمة إلى بلادك البعيدة ، حيث قد تصادفك فيها عجائب المقدور بالأهل الذين تتوقين إليهم ، وبالخاطب الذى لا تعلمين ما أصارته إليه الأمور . ولكن لى عندك شيئاً واحداً فيه خلاصك وعودتك إلى وطنك .

— أرجو أن يكون فى طاقتى بلوغ ما تريد .

— لن يكلفك ذلك شيئاً ، فما هى إلا كلمة من بين شفتيك يتقرر فيها مصير محمد بن قاسم عدوك وعدو أبيك من قبل . . .

— آه من ابن القاسم أيها السيد الكريم ! لقد وترنى بالأسر ، ووتر أبى بالقتل ، ووتر السند كلها بالفتح . . ! ولقد نسيت

السندُ الآن ترات الفتوح والغزو بعد أن دخلوا فى الإسلام ، ودانوا بالطاعة ، ونزلوا على إرادة الفاتحين . . . أما ترة قتل أبى وترة أسرى فأرجو أن لا تطول بى الأيام حتى آخذ بهما .

— وهل تضمرين العداوة لابن القاسم إلى هذا الحد ؟

— وأية عداوة أشد مما لقيت من هذا الذى كان يظهر لى الود ويُسر لى البغضاء ؟ لطالما شهدتْ أودية أنهار السند آثار حبه لى! ولو سألتم حصى نهر مهران لنطق من وقع أقدامنا عليه!

— تقولين إن محمد بن القاسم أحبك أيتها الأميرة السمراء !

— نعم أحبنى حتى أسلمت له قلبى ، وسلمته زمام هواى ، ولكننى ما كنت أدرى أنه كلف بالنساء ، متقلب فى الأهواء . ولو كنت أعلم أنه لا يثبت على حب ما منحته من نفسى ما منحت ... فلما أبنت له العبث الذى يعبثه بقلبى ، رمانى بدائه ، وتجنى علىّ ذنب التآمر والمخامرة ، ووجد السبيل إلى الخلاص منى ، والقذف بى إلى مطارح هذا الإسار البعيد .

— وما ظنك أيتها السمراء لو أبلغت خليفتنا المحبوب سليمان ابن عبدالملك على لسانك أن محمد بن القاسم لم يكن — حين قتل أباك واحدٌ من جنده — أمينًا عليك ، ولا عفيفاً معك ، ولا صائناً فيك أمانة العذارى المصونات ؟

غضب الخليفة سليمان

دخل صالح بن عبدالرحمن على الخليفة سليمان بن عبدالملك يعرض عليه من أمور خراج العراق ما كان موكولا به ، فسلم تسليم الخلافة ، فلما أذن له سليمان بالجلوس تبع ذلك بسؤاله قائلا :

— كيف حال العراق يا صالح بعد أن استعملتُ عليه يزيد بن المهلب وهو الضارب بسيوفنا ، المتقلب فى نعمنا ، المقيم على طاعتنا ؟

— إن العراق يا أمير المؤمنين يدين لك بالطاعة ، ويقر لك بالبيعة ، ويؤكد لك العهد الذى كان أخوك الوليد يريد أن ينزعه منك ، ويكرر لك التهنئة بما صرت إليه من ولاية أمر المسلمين .

— وما حال الخراج يا صالح منذ ألقينا تبعاته عليك ؟

— تَعْلَمُ يامولاى أن الحجاج مع عنفه الشديد لم يستخرج من خراج العراق كبير أمر . . . وما كان — قبحه الله — يصلح للدنيا ولا للآخرة ، لقد ولى العراق فى العام الخامس والسبعين من

الهجرة ، والعراق أوفر ما يكون خراجاً ، فأخسّ به إلى أن صيره إلى أربعين ألف ألف ، مع أنه بلغ فى عهد الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب إلى عشرة آلاف ألف ومائة ألف ألف . وكان من الواجب أن يزيد خراج العراق مع زيادة الفتوح ، واتساع العمارة . ولكن الحجاج لم يكن يعرف كيف يحتال للمال فيجلبه ويعمر به خزائن الدولة ، فلا بد من بعض الوقت يمضى ، حتى أستصلح من أمر الخراج بالعراق ما فسد . . . والله يبلغنا الأمل بك ، ويطيل العمر لك . . .

— آه يا ابن عبد الرحمن لقد ذكرتنى بالحجاج ومساوئه ! ذكرتنى المظالم التى ارتكبها ، والسجون التى ملأها بكل من أخذه بريبة ، والأرواح التى أزهقها . . . ثم جرّنى التذكر إلى ما كان من موقفه منى فى مسألة ولاية العهد ، وأنا أحق بها من ابن أخى الوليد . ولقد رد الله كيده فى نحره فأفسد عليه وعلى قتيبة بن مسلم تدبيرهما ضدى . فأنا ما زلت كارهاً لهذا الرجل الذى استوجب سخطى عليه بما سلف لى منه . . . والشىء بالشىء يذكر ! ما حال قوم الحجاج من بنى عقيل ، وقد طلبتُ إلى يزيد بن المهلب أن يخلص أموالهم ويعذبهم ، فترك يزيد ذلك إليك ؟

– إن بنى عقيل يا مولاى يلقون فى مدينة واسط جزاء ما أسلف الحجاج من ظلم وعسف ، ولا أظنهم إلا خليقين بالعذاب الذى يُصب عليهم اليوم فى سجن واسط ، فإن هواهم كهوى عميدهم الحجاج لم يكن معك يوماً ما ، ولا كانت قلوبهم معك قبل أن يعهد الله إليك أمر المسلمين ، ولا بعد أن صار إليك أمرهم . فليذوقوا فى غيابات السجن وبال أمرهم ، وجزاء ميلهم .

– ولكن يؤلمنى يا ابن عبد الرحمن أننى أغلقت فى بداية عهدى السجون التى ملأ بها الحجاج الأبرياء ، وأخليت سراح الأسرى الذين كان يأخذهم بأدنى الشبهات ، ثم أجىء أنا فأفتح سجن مدينة واسط – التى بناها الحجاج لدولتنا فى العراق – لأملأ به أهل الحجاج وقومه من بنى عقيل .

– ليرتح ضميرك ، ولتطمئن نفسك يا أمير المؤمنين بما صنعت ! فإن قوم الحجاج قد استطالوا وتكبروا ، وظنوا أنهم فوق منال كل سلطان ، حتى لقد بلغ من جرأة أحدهم – وهو محمد بن القاسم – أن يستعلى فى السند حين نصر الله جيش المسلمين على يديه ، فعلا فى تلك البلاد علواً كبيراً ، وظن أنه أكبر من حدود الله التى أخذ بها عباده ، فاعتدى على سيتا بنت

الملك ذاهر ملك السند اعتداء فاحشاً ، ونال من عفتها ما لا يصدر عن كواسر الوحوش ، وما لا يليق ببنات الملوك ، وأميرات القصور . ولو أن الجناية الفاحشة ، والفعلة البالغة الفاجرة وقعت من جندى من عامة الجيش لعظمت فيها البلية ، وجلّ فيها الخطب ... فكيف وقد وقعت من القائد الغر الذى أرسله الحجاج إلى السند ، ليكشف لأهلها عن مساويه ، ويبين لهم عن مخازيه . فكل عيب فيه فهو مردود إلينا نحن العرب ، وكل فضيحة منه فهى منسوبة فى نهاية المطاف إلينا ، وعائدة علينا . . .

ـ ومَن أنبأك بهذه الشنعاء يا صالح ؟

ـ أنبأتنى بها الضحية نفسها ، التى أوقعها سوء حظها فى مخالب وحش من وحوش بنى عقيل ! أخبرتنى بها الفتاة السندية سيتا بعينها ، وهى فى دار الشيخ صفوان ، وما داره منا ببعيدة .

ـ يأبى الله يا صالح إلا أن يكشف من قوم الحجاج كل يوم عورة جديدة ! إن الحياة فى السجن لا يستحقها مغرور بنى عقيل ! إنه لحقيق أن تسلب منه الحياة بعد الذى سمعتُ منك عنه . وأنا واثق مما قلت ، فلا حاجة إلى تحقيق أو استشهاد بأحد . ولا أجد غيرك يا صالح أقدر على القيام

باستلال نفس هذا الفتى الغر من بين جنبيه ! فمتى أنجزت مهمتك هنا وعدت إلى العراق ، وحللت فى مدينة واسط حيث دار الخراج تنتظر عودتك ، فلا تبطئ فى تنفيذ ما يستحقه ابن القاسم من الجزاء .

* * *

وانقضت مهمة صالح بن عبد الرحمن فى شأن الخراج ، وهى التى من أجلها وفد على دمشق . وعاد إلى واسط وقد حمل من الخليفة سليمان تفويضاً بقتل محمد بن القاسم الثقفى ، وإذا زاد بقتل بنى عقيل كلهم المحبوسين فى سجن واسط فإنها زيادة يرجو بها زيادة الحظوة عند الخليفة سليمان . . .

وما كادت المطايا يبلغن واسط — مدينة الحجاج — بما يحملن من صالح بن عبد الرحمن ورجال حرسه ، ولم يكد المسافر العائد يقر عيناً بالإياب ، حتى خيم على المدينة الصاخبة وجوم عميق . . . وسرى النبأ من واسط إلى كل بقعة من بقاع الأرض ، وأسبقهن دمشق — بأن صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق قتل فى السجن محمد بن القاسم — بطل السند — وقتل قومه من بنى عقيل . . .

يقظة الضمير

لم تأخذ سيتا إلى هذه اللحظة ثمن الفرية التى افترتها على البطل الشهيد . . . لقد وعدها صالح بن عبد الرحمن ، وهو يخيط أطراف مؤامرته ، أن يساعد على إطلاق سراحها ، وردها إلى قومها فى بلاد السند ، لعلها تلقى هناك شمل أسرتها متجمعاً بعد أن سكنت حركة الفتوح ، ولعلها تعود فترى حبيبها الأمير السندى الذى كان خاطباً لها ، ففرقت الأحداث ما بين الاثنين . . .

ولكن صالح بن عبد الرحمن كان فى شغل عن الوعد الذى وعد به سيتا . . . لقد كان فى هم من أمر الخراج وزيادته حتى يزيد فى نظر الخليفة سليمان قدراً ومكانة ، وهل فكر عمال الخراج فى أمر غيرهم مثل تفكيرهم فى أمر أنفسهم ؟

ألم يكن عمال بنى أمية قبل هذا العهد الذى نحن بصدد الكلام فيه يزيدون فى الخراج ما يرهق الناس من أمرهم عسراً ، حتى ضج الناس وضاقوا ؟ ألم تكن رغبة معاوية — أول خلفاء

هذه الدولة — أن يزيد الخراج فى مصر على كل امرئ قيراطاً ، فامتنع وردان مولى عمرو بن العاص أمير مصر قائلا : كيف أزيد عليهم ، وفى عهدهم أن لا أزيد عليهم ؟

ألم يستقل الخليفة عبد الملك بن مروان قدر الخراج فى عهده على كل رأس ، فبعث إلى عامله ، فأحصى الجماجم ، وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسب العامل سنة كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وإدامه وكسوته ، وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك فى السنة لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلها طبقة واحدة ؟

لقد كان همّ عمال الخراج أن يرضوا الخليفة ، ولا يكون رضاه إلا بالزيادة فى الخراج . . . ففيم يفكر صالح بن عبد الرحمن إذن فى أمر سيتا ابنة الملك ذاهر ، أو فى غيره من توافه الأمور ؟

* * *

جلست سيتا ذات يوم فى مكان خدمتها بدار صفوان تتحدث مع جارية من جوارى الشيخ الثرى كان اشتراها من

سبى فارس وأغلى فيها الأثمان . وكان فى الجارية الفارسية براعة فى الحديث ، ولطف فى مداخل القول ، وذكاء يبدو على بريق عينيها ، فوق ما حباها الله به من رقيق الجمال .

ولقد كانت الجارية الفارسية حديثة عهد بالاجتلاب من بلادها ، ومرت فى طريقها إلى الشام بمراحل ، كانت البصرة إحداها . وفى البصرة سمعت طائفة من الأخبار التى كانت تتلقفها أفواه الغادين والرائحين فى هذا الثغر الإسلامى الذى كان يموج بألوان من الخلق . . .

وسمعت الجارية الفارسية فيما سمعته أن بعض بلاد السند قد انقضت على الدولة الأموية ، وأن ملوك السند رجعوا إلى ممالكهم ، وأن الأمير جيشبة بن ذاهر ملك السند المقتول قد رجع إلى مدينة برهمنا باذ . وجيشبة هذا هو أخو الأميرة سيتا التى كان لها مع ابن القاسم بطل السند شأن أى شأن . . . جلست سيتا تستمع إلى هذه الأنباء من رفيقتها فى الرق ، وزميلتها فى دار الشيخ صفوان . ولما ذكر اسم أخيها جيشبة على مسمعها عادت بها الذاكرة إلى ماض لا ينسى . . .

لقد كان جيشبة هذا أحد الشبان الثلاثة الذين كانت

تتسلل إليهم الأميرة سيتا فى ظلمات الليل الأليل ، لتحمل إليهم فى مطاوى الظلام كل ليلة أنباء عن محمد بن القاسم أمير السند وقائد جيوش المسلمين فيها . فهى إذن كانت عيناً على المسلمين وجاسوساً على جيوشهم و بطلهم فى السند ، وكان العدل وعادل القصاص يقتضى أن يقطع رأسها حين انكشف أمرها ، ولكن البطل العربى الشاب أبدلها من القتل بالأسر .

مر هذا الماضى الذى أوجزناه فى شريط طويل أمام عينى سيتا ، وتذكرت مروءة محمد بن القاسم معها ، وحبه لها ، وصيانته لشرفها ، وحفظه لعرضها . وكيف قلبت كل هذه الفضائل إلى أضدادها أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج سليمان على العراق ، لعلها تشفى حقدها على بطل السند لقتل والدها وضياع بلادها . أو لعلها تظفر من هذا الافتراء المحض بثمن بخس وهو أن يفك إسارها ، ويطلق سراحها ، وتعود إلى أرضها وقومها وخاطبها . . .

وتذكرت سيتا فوق ذلك كرم ابن القاسم فى معاملة أهلها وأهل السند عامة ، حتى بكوه يوم صدور أمر الخليفة الجديد سليمان بعزله من إمارة السند وقيادة الجيش ، فاحتقرت نفسها أن

يكون هذا جزاء من أحسن إليها ، وبرّ بها ، واقتضاه الشرف العربى والخلق العربى أن يصون لها شرفها .

وأخذ ضميرها يؤنبها ، ويتنبه فيها شيئاً فشيئاً ، حتى بات يعذبها بوخزاته ، وأليم حسابه . فلم تطق سيتا صبراً على عذاب لا يطاق بجانبه عذاب الأسر ، ووجهت الحديث إلى رفيقتها الجارية الفارسية قائلة :

— يا أختاه ! إن السِّند الذين تخبرين الآن عنهم هم قومى ، وجيشبة هذا هو أخى ، وذاهر هو أبى الذى قتله محمد ابن القاسم حين فتح مملكتنا وأضاع ملكنا . . . والحق أن ابن القاسم لم يقتل أبى بيديه ، ولكنه قتل على يديه . . . قتله القاسم ابن ثعلبة بن عبد الله . فهو اسم سيظل عاكفاً على ذاكرتى حتى أوسد فى التراب . . . ولا أدرى يا أختاه لم حملت كل هذا الحقد على محمد بن القاسم؟ ألأن اسمه اقترن دائماً بمقتل والدى ذاهر الذى أحببته بما لا تحب به ابنة أباها ؟ أم لأنه ضيع الملك الذى بناه أجدادى فى مئات السنين؟ أم لأنه شتت شمل أسرتى فتفرقوا بعد أن كان شملهم جميعاً ، وأمرهم مجموعاً ؟ أم لأنه أرسل بى إلى الأسر فى العراق والشام حتى بلغت بى الأيام هذا المقام ؟

لقد اعترفتُ أمام صالح بن عبد الرحمن عامل خراج الخليفة سليمان بأن محمد بن القاسم عبث بشرفى ، ولم يصن عرضى . وما كنت — شهد الله — إلا متجنية ومفترية على رجل برىء لم أرَ الكرامة مكتملة إلا فيه ، ولا الشرف لاصقاً إلا به ، ولا الأمانة إلا أولى فضائله . وإن ضميرى الآن ليعذبنى عذاباً لا أظن أن أحداً من العالمين قد لقيه . فأشيرى علىّ يا أختاه !

— بماذا أشير عليك يا سيتا وقد سبق السيف العذل ؟ أما سمعت الأنباء التى تجاوبت بها أنحاء العراق ، واهتزت جنباته ، واحتملها البريد إلى الشام بأن محمد بن القاسم — بطل السند — قد قتله صالح بن عبد الرحمن عامل الخراج لسليمان ، وقتل معه قوماً من بنى عقيل ؟

— قتل محمد بن القاسم ! ولا تزال الفرية التى افتريتها عليه عالقة به ؟ ! إن هذا لن يكون ! منْ يُبلغ الخليفة سليمان بن عبد الملك أننى اختلقت على محمد بن القاسم ما لم يتسرب به الوهم إلى نبالة نفسه ، وشرف خلقه ؟ من مُبلغ الخليفة أنى ادعيت على الرجل الشريف ما هو منه براء ؟ إن سماء السند وأرضها ، وجبالها وأوديتها تشهد بأن محمد بن القاسم برىء مما

نسبته إليه ، واختلقته عليه .

ومضت الجارية الفارسية — وقد أذهلها ما سمعت من سيتا وما رأته منها — إلى سيدها ومولاها صفوان ، وأبلغته ما حدث . فاستقدم سيتا إليه واستوضحها الأمر ، فأعادت عليه ما قالته لزميلتها .

وانطلق صفوان إلى قصر الخليفة سليمان وأنبأه بما قالت سيتا كلمة كلمة ، لم يخرم منه حرفاً واحداً .

وكان فى سليمان عدالة وتحر للإنصاف ، فقد اتخذ الرجل الطيب والمسلم المثالى عمر بن عبد العزيز مستشاراً له ، وعهد إليه بالخلافة من بعده ، لما لمح فيه من الخير والفضل والحرص على مصالح المسلمين ، ولم يعهد بها إلى أحد من أبنائه ، كما كان يحرص أسلافه من الأمويين .

فاهتز الخليفة سليمان لما سمعه ، وأمر بسيتا أن تحضر وأن تقرر بين يديه ، فحضرت وأقرت ببراءة ابن القاسم مما اتهمته به حقداً وانتقاماً .

وعز مقتل محمد بن القاسم على سليمان مأخوذاً بفرية لم تخطر له على بال ، ولم تعلق له بوهم ، ولم يتلوث ضميره

بالتفكير فيها بشهادة المفترية نفسها . فأمر بها أن تقتل كما تسببت فى قتل بطل السند بالظلم والعدوان ، والإفك والبهتان ...

* * *

ومضت العصور متتابعة تحمل لمحمد بن القاسم بطل السند بعض الإنصاف حيناً ، وبعض الجحود أحياناً ، فضن عليه التاريخ بإفاضة الحديث عنه كما يُفيض على الفاتحين والأبطال . ولم يجُد عليه التاريخ — بعد أن أدخل الملايين فى الإسلام — إلا بنتف يسيرة من الأخبار لا تتكافأ مع ما قام به من جلائل الفتوح ، والجهاد فى سبيل الله .

ولعل هذه الصفحات هى أول كتاب يكتب فى تاريخ فاتح السند : محمد بن القاسم الثقفى ، رحمه الله ، وعطر ذكراه . . .

* * *

مصارع الفاتحين

فى عهد الخليفة سليمان

لعل أعجب ما فى عصر الخليفة سليمان بن عبد الملك — وهو لم يزد فى خلافته على سنتين وستة أشهر — أن ثلاثة من أبطال الفتح الإسلامى لقوا مصارعهم على يديه أو بتوجيه منهم .

وأول من قتل من الفاتحين المسلمين فى عهده هو الفتى الثقفى المغوار ، والبطل الشاب الجرىء محمد بن القاسم الذى قرأنا من أنبائه وأخباره إلى الآن ما لا حاجة معه لزيادة ، ولا موضع لإعادة . . .

أما ثانى الأبطال المسلمين الذين قتلوا بسبب الخليفة سليمان ابن عبد الملك فهو المجاهد الغازى قتيبة بن مسلم الباهلى ، الذى فتح خراسان وتركستان وأوغل فى بلاد الصين حتى خشيه ملوكها وتقربوا إليه ، والذى تدين له ألوف الألوف من المسلمين فى قلب القارة الأسيوية بأنه نشر الإسلام فيهم ، وأعلى كلمة الله بينهم ، وأنشأ فيها المساجد ترتفع من مآذنها

أصوات المؤذنين ، وهم يدعون إلى الصلاة ، وإلى الفلاح ، ويهتفون : الله أكبر ، الله أكبر ، فتستجيب لهم القلوب ، وتخشع النفوس ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجاً ، كما كانوا يدخلون فى العهود الأولى للإسلام .

واختلف الناس فى المصرع الذى لقيه القائد قتيبة بن مسلم على يد رجال سليمان ، فمنهم من استفظع قتل مجاهد رفع الله به ألوية الإسلام فوق كل مكان . . . ومنهم — كالمؤرخ ابن كثير — من سوغ قتله بأنه زل زلة كان فيها حتفه ، وفعل فعلة رغم فيها أنفه . . وخلع الطاعة فبادرت المنية إليه ، وفارق الجماعة فمات ميتة جاهلية . . . ولكن سبق له من صالح الأعمال ما قد يكفر الله به سيئاته ، ويضاعف به حسناته .

والحق أن مصرع قتيبة كان شديداً على المسلمين الذين أدركوه والذين جاءوا بعده إلى يومنا هذا . . . ولقد رثاه الشعراء مراثى رقيقة مفجعة حزينة تتفق مع بشاعة المصرع ، منهم عبد الرحمن بن جمانة ، والطرماح ، والشاعر جرير الذى يروى ابن خلكان المؤرخ أنه قال متفجعاً يلوم قاتليه :

ندمتم على قتل الأغر ابن مسلم وأنتم إذا لاقيتم الله أندمُ
لقد كنتمُ من غزوه فى غنيمة وأنتم لمن لاقيتمُ اليوم مغنم
على أنه أفضى إلى حور جنة وتطبق بالبلوى عليكم جهنم . .

* * *

أما ثالث الفاتحين الذين قتلوا فى عهد الخليفة سليمان بن عبد الملك وبتحريض منه فهو عبد العزيز بن موسى بن نصير . ولقد كان عبد العزيز هذا أميراً على الأندلس بعد أن فتحها أبوه موسى بن نصير ، فضبط أمورها ، وحمى ثغورها ، وأكمل فتح عدة من المدن الأندلسية . ولكن سليمان بن عبد الملك سخط على أبيه موسى بن نصير وهو بالشام ، فيقال إنه بعث إلى الجند بالأندلس فى قتله . . . فدخلوا عليه المحراب وهو يقرأ الفاتحة بعد صلاة الصبح ، وضربوه بالسيوف ضربة واحدة ، وأرسلوا رأسه إلى الخليفة سليمان بدمشق ، فعرضها سليمان على أبيه فتجلد الرجل للمصيبة .

* * *

وجزع المسلمون هذه المرة أيضاً لمصرع جديد لفاتح وابن فاتح فى عهد سليمان ، ولكنهم لا يزالون يذكرون أن مصرع

بطل السند كان أمعن فى الغدر ، وأشد فى الفرية التى أحاطت به ، والكذبة الشنعاء التى افتريت عليه .

ولعل المسلمين لا يزالون يرددون كلما ذكروا فتحاً ، أو شجاعة ، أو مروءة ، أو سؤدداً على حداثة من السن ، وميعة من الشباب . . . لعلهم لا يزالون يرددون قول الشاعر حمزة بن بيض الحنفى فى رثاء بطل السند محمد بن القاسم :

إن المروءة والسماحة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد
ساس الجيوش لسبع عشرة حجة ياقرب ذلك سؤددا من مولد !

ولعلهم فى وفائهم لذكرى أبطالهم ، والخالدين من رجالهم يذكرون قول الشاعر الآخر فى رثاء البطل العظيم :

ساس الرجال لسبع عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال

